

الهجوم البيزنطي على دمياط سنة ٨٥٣ م

رؤية جديدة

للصراع البحري البيزنطي الإسلامي فى القرن التاسع الميلادي

تمهيد :

يمثل الهجوم البيزنطي على دمياط فى سنة ٨٥٣ م حلقة مهمة فى حلقات الصراع البيزنطى الإسلامى . وقد وقع هذا الهجوم فى العقد الأول من النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى فى أعقاب الهزائم الموجعة التى أنزلها المسلمون بالبيزنطيين فى شرق الإمبراطورية وغربها . ففى الشرق كان على بن يحيى الأرمنى ، قائد الخليفة العباسى المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١ م) ، قد شن غارتين ناجحتين على الثغور الشامية التابعة للإمبراطورية البيزنطية فى عامى ٨٥١ م ، ٨٥٢ م . وعلى الجبهة الغربية للإمبراطورية منى البيزنطيون بهزائم متتابة أمام المسلمين فى صقلية فى الفترة بين ٨٤١ : ٨٥١ م ، واستولى المسلمون على مواقع كثيرة فى هذه الجزيرة . وبين هاتين السلسلتين من الهزائم وردت إلى بيزنطة ، معلومات عن شحنة من الأسلحة فى دمياط ينوى المصريون إرسالها إلى مسلمي كريت ، التى كانت شوكة فى جنب الإمبراطورية البيزنطية منذ استيلاء المسلمين عليها فى ٨٢٧ م ، والتى أخفقت كل محاولاتهم لاستردادها منهم فكان لابد من شن هجوم على دمياط وتخريبها ، والاستيلاء على هذه الشحنة .

وفىما يتعلق بالمصادر التى أرخت لهذه الفترة ، فإننا نلاحظ إنه على الرغم من النجاح الكبير الذى حققه البيزنطيون بهذا الهجوم ، فقد التزمت المصادر البيزنطية الصمت التام إزاءه ، فخلت الساحة بذلك للمصادر الإسلامية لتصبح هى النافذة الوحيدة التى نطل منها على

ملايسات هذا الهجوم ونتائجه من المنظور الإسلامي . ورغم اعتماد المؤرخين المحدثين على المصادر الإسلامية فى تناولهم لهذا الحدث بالبحث والتحليل ، فإنه يؤخذ على هؤلاء المؤرخين أنهم لم يضعوا هذا الحدث الكبير فى إطاره الصحيح ، ولم يتطرقوا إلى مقدماته التاريخية البعيدة وأهدافه الاستراتيجية والتكتيكية . فأخذت رواية هؤلاء المؤرخين للهجوم على دمياط طابعاً سردياً محضاً دون أى إشارة إلى أسبابه ودوافعه الحقيقية ، ولم تزد إشاراتهم إلى الحدث عن شذرات مبعثرة . وربما كانت مقالة فلاديسلاف كوبياك التى نشرت تحت عنوان " الهجوم البيزنطى على دمياط فى ٨٥٣ م ، والبحرية المصرية فى القرن التاسع " (١) ، هى أول محاولة لوضع هذا الهجوم فى إطاره الصحيح ، على الأقل فيما يتعلق بتطور القوة البحرية المصرية فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين . ورغم ان الهجوم البيزنطى على دمياط سنة ٨٥٣ لم يكن يمثل الفكرة الأساسية لموضوع هذه المقالة ، فإنه كان بمثابة النقطة المرجعية ، إن جاز التعبير، لدراسة أحوال البحرية المصرية قبل الهجوم و بعده.

ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث الذى يطرح رؤية جديدة لهذا الهجوم تمثل - بقدر ما نعرف - أول محاولة لدراسته وتقييمه من المنظور الاستراتيجى للصراع الطويل بين البيزنطيين والمسلمين ؛ وإبراز أهمية الدور الإقليمى والدولى لمصر من خلال هذه الأحداث ؛ وإلقاء الضوء على جانب مهم من جوانب الشخصية المصرية تجلى فى مقاومة الغزاة على مر العصور ، وعدم استسلام مصر للهزيمة والنهوض من كل كبوة أقوى وأعز مما كانت .

وقد اقتضى هذا الطرح الجديد للمسألة استعراض المقدمات التاريخية التى أدت إلى الهجوم البيزنطى على دمياط فى ٨٥٣ م من خلال

kubiak, W. B., The Byzantine Attack On Damietta In 853 and (١)
the Egyptian Navy in 9TH Century, In : Byzantion, VOL. XI,
Bruxelles, 1970, PP 45-66.

التعرف على الأوضاع فى البحرية المصرية قبل هذا الهجوم ؛ واستجلاء حقائق الصراع البحري البيزنطي الإسلامي حول جزيرتى كريت وصقلية بوجه خاص وتأثيره على موضوع الدراسة ؛ ورسم صورة أكثر دقة لأهداف هذا الهجوم ، لبيان الهدف الاستراتيجي العام لهذا الهجوم وهو القضاء على التهديد الإسلامي المتنامي للممتلكات والسواحل البيزنطية فى البحر المتوسط ، والأهداف التكتيكية التى حاول البيزنطيون من خلالها تحقيق هدفهم الاستراتيجي الأكبر ، حيث كان الهجوم على دمياط فى عام ٨٥٣ م من أهم هذه الأهداف .

وبعد هذا العرض لمقدمات الهجوم ، والتزاماً بمنهج الترتيب الزمني للأحداث ، رأينا أن نفضل الحديث فى ملاحظات هذا الهجوم من حيث أسباب اختيار دمياط لتكون هدفاً للضربة البيزنطية ؛ ووقائع الهجوم الفعلي على المدينة ؛ والرد عليه على المستويين الشعبي والرسمي ، والنتائج التى تمخض عنها الهجوم فى المعسكرين البيزنطي والإسلامي .

ونظراً لانفراد المصادر العربية برواية هذا الحدث ، والغياب الكامل لأى إشارة إليه فى المصادر البيزنطية ، وقد بينا أسباب ذلك فى موضعه ، فقد كان لابد لنا من تناول هذه المصادر العربية بشيء من الدراسة والتحليل لبيان الأهمية النسبية لكل منها فى تناول الحدث موضوع البحث . وخلصنا من ذلك إلا أن رواية الطبري هى أكثر هذه الروايات اكتمالاً وأقربها إلى المنطق والواقع التاريخي . ومع ذلك ، فقد رجعنا - للأمانة العلمية- إلى المصادر البيزنطية المعروفة فيما يتعلق بالأحداث التى جرت فى منطقة البحر المتوسط فى الفترات السابقة على الهجوم البيزنطي على دمياط عام ٨٥٣ م والفترات اللاحقة عليه . كما استفدنا من آراء بعض المؤرخين المحدثين فى هذا الهجوم ، وأخضعنا هذه الآراء لمنهج التحليل العلمي لأحداث التاريخ.

واختتم البحث بعرض لأهم نتائج الهجوم وتأثيره على النهوض بالبحرية المصرية ، وإعادة بناء الأسطول ، وتحصين الثغور البحرية وتعزيز دفاعاتها وبيان دلالة ذلك كله على تكوين الشخصية المصرية الراضة للاستسلام . كما أوضحنا من خلال عرضنا لهذه النتائج مدى الإخفاق الذى منيت به المحاولات البيزنطية المتعاقبة للقضاء على التهديد الإسلامى للنفوذ البيزنطى فى حوض البحر المتوسط .

المقدمات التاريخية التى أدت إلى الهجوم البيزنطى على دمياط

عام ٨٥٣ م .

تتمثل المقدمات التاريخية للهجوم البيزنطى على دمياط عام ٨٥٣ م فى أحوال البحرية المصرية قبل منتصف القرن التاسع من جهة ، واستيلاء المسلمين على معقلين من أكبر وأهم المعاقل البيزنطية فى البحر المتوسط فى ذلك الوقت من جهة أخرى ، وهما كريت وصقلية اللتان تزامن سقوطهما فى يد المسلمين فى عام ٨٢٧ م . ونستعرض فيما يلى هذه المقدمات بشيء من التفصيل .

أولاً: البحرية المصرية قبل الهجوم البيزنطى على دمياط فى ٨٥٣

فى سنة ١٢٩/٧٤٦ هـ ، خرجت حملة بحرية أموية من الإسكندرية لمهاجمة قبرص^(١) ولكن الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥ م) أرسل قائد أسطول الكيبرهايون لمقابلتهم ، وبعد مواجهة عنيفة أبيد الأسطول الإسلامى عن آخره تقريباً^(٢)، وعلى

(١) لا ننكر المصادر الإسلامية شيئاً عن هذه الحملة ، انظر :

Theophanes, Chronographia, Ed, P. G. M. Tome CVIII, Paris, 1863, Cols 848-855; Cedrenus G., Historiarum Compendium, Ed. I. Bekker, 2 Vols, C. S. H. B., Bonn, 1839, p.9; Nicephorus Patriarchae, Breviarum Historiarum, Tome C, Ed. P. G. M., Paris, 1860, Col. 972 .

Cedrenus, Historiarum, p. 9 ; Cf. Also : Ahrweiler, Helen, Byzance et la Mer, (marine de guerre, la politique et les institutions maritime des Byzance aux VII au XV Siecles, Paris, 1966, pp 50-52 ; Lot, F., L'art Militaire et les Armees au Moyen Age en Europe et dans le Proche Orient, Tome Premier , Paris, 1946, p. 63.

الرغم من التفوق العددي للأسطول الإسلامي^(١) ، فقد كان للنار الإغريقية - ذلك السلاح البيزنطي الشهير - أثرها فى حسم المعركة لصالح البيزنطيين^(٢).

وكانت هزيمة الأسطول الإسلامي فى مياه قبرص على هذا النحو انتصاراً كبيراً للبحرية البيزنطية جعل كثيراً من المؤرخين المحدثين يرون أنه لم تقم للبحرية المصرية بعده قائمة ، بل ذهبوا إلى القول بأنه لم يكن هناك وجود للأسطول المصري فى البحر المتوسط بين سنة ٧٤٧م التى وقعت فيها هذه المعركة وسنة ٨٥٣ م عندما هاجم البيزنطيون دمياط^(٣).

ولسنا هنا بصدد إنكار وقائع تاريخية ثابتة ، تتمثل أساساً فى ان هزيمة الأسطول الأموى أمام قبرص تمثل منعطفاً خطيراً فى تاريخ الصراع البحري بين المسلمين والبيزنطيين على المستوى الاستراتيجي العام . فقد آلت السيادة على مياه البحر المتوسط ، بهذا الانتصار البيزنطي الكاسح ، إلى الإمبراطورية البيزنطية وانتهى الصراع البحري الطويل بين البيزنطيين والأمويين لصالح بيزنطة^(٤) كما أن أحداً لا ينكر أن سقوط الدولة الأموية بعد ثلاث سنوات من هذه الهزيمة وقيام الدولة العباسية سنة

(١) بالغ المؤرخ اليوناني ثيوفانيس فى تقديره لعدد سفن المسلمين ؛ حيث ذكر أنها ألف سفينة لم تعد منها إلى الإسكندرية إلا ثلاث سفن ، انظر : Theophanes, Chronographia, Col. 856 .
(٢) ينسب اختراع هذه النار إلى مهندس سوري يدعى كالينيكوس كان لاحقاً فى القسطنطينية . وقد عانى الأسطول الإسلامي كثيراً من هذه النار ، وظل هذا الاختراع لقرون عديدة السر العسكري الأعظم للإمبراطورية البيزنطية ، انظر :

Zenghelis C., le Feu Gregeois et les Armes a Feu des Byzantins in "Byzantion", Tome VIII, Bruxelles, 1932, p. 266 ff .

Anastos M.V Iconoclasm and Imperial Rule 717 – 842, in Cambridge (٣) History, Vol IV, Part 1, second ed., Cambridge, 1967, p 74; - Medieval Brooks E.W., The Struggle With the Saracens, 717 – 867, in C.M.H, Vol. IV, Cambridge, 1936, p 121 ; Brooks, E.W., The Relations between the Byzantine Empire and Egypt From the New Sources in B. Z, Vol. XVII, Bruxelles, 1913, pp 383 – 384 .

راجع أيضاً : أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ٥٠٠ - ١١٠٠ م ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٤) وسام عبد العزيز فرج ، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، ١٩٨١ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

٧٥٠ م / ١٣٢ هـ كان إيذاناً بتوقف النشاط البحري للمسلمين في مصر والشام لانصراف الدولة العباسية عن شؤون البحر بسبب مشاكلها الداخلية والخارجية من جهة ، وانصراف الدولة البيزنطية من جهة أخرى عن المصادمات البحرية بسبب الفتن الداخلية التي كانت تعاني منها^(١) لكن الذى يعنينا هنا هو أن ننبه إلى خطورة الانزلاق وراء مزاعم من ذهبوا إلى حد القول بتوقف نشاط البحرية المصرية تماماً فى هذه الفترة (من ٧٤٧ إلى ٨٥٣ م) . ففى هذا القول من التجنى على البحرية المصرية بقدر ما فيه من الإهدار للحقيقة العلمية . وبداية فإن الزعم بعدم وجود أسطول أو بحرية لفترة تزيد على مائة عام فى بلد تمتد سواحله البحرية لمسافة تقرب من ٢٩٠٠ كيلو متر^(٢) ويخترقه من أقصاه إلى أقصاه واحد من أعظم أنهار العالم بل أطول هذه الأنهار فعلاً وهو نهر النيل هو زعم يدل على عدم المعرفة بأبسط مبادئ العلوم الجغرافية وأثر التضاريس على حياة الشعوب . وبعيداً عن الواقع الجغرافي لمصر، فإن الواقع التاريخي ، إذا أحسن رصده والاستدلال به ، يثبت زيف هذا الزعم ، ويستنهض همم الباحثين لبذل المزيد من الجهد فى البحث والتنقيب فى خبايا الفترة التى نحن بصدددها .

^(١) ويرى البعض أن النشاط البحري للمسلمين فى مصر والشام قد توقف فى بداية العصر العباسي فترة دامت ما يقرب من خمسين سنة ، وهو الرأى الذى يختلف عما توصل إليه البحث فى الصفحات التالية . انظر : السيد عبد العزيز سالم ، دراسات فى تاريخ العرب ، العصر العباسي الأول ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ص ٢٨٤ .

^(٢) يمتد الساحل الشمالي لمصر بين رفح والسلوم لحوالي ٩٦٥ كيلومتراً ، بينما يبلغ طول ساحلها الشرقي الممتد من بئر طابا إلى الحدود المصرية السودانية حوالي ١٩٣١ كيلومتراً . انظر : محمد فاتح عقيل : أهمية الموقع الجغرافي لجمهورية مصر العربية ، فى : تاريخ البحرية المصرية ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٣ ، ص ١٧ .

١ - ففي سنة ٧٥٠ م ، أنزل حاكم الإسكندرية سفناً جديدة في البحر وقد تحدث ساويرس بن المقفع عن هذه الواقعة في تاريخه لبطاركة الكنيسة القبطية في الإسكندرية^(١).

ولنا في ذلك الحدث الذي جاء بعد ثلاث أو أربع سنوات فقط من هزيمة الأسطول في قبرص ، خير دليل على سرعة رد المسلمين الذي تمثل في إعادة بناء أسطولهم في زمن قياسي . وإذا كان الهجوم البيزنطي على دمياط في عام ٨٥٣ م هو الشرارة التي فجرت الاهتمام بالبحرية وإعادة بناء الأسطول على النحو الذي أوردته مصادر الفترة ، فلماذا نستبعد أن يكون الشيء نفسه قد حدث في أعقاب هزيمة الأسطول في قبرص ، لاسيما إذا علمنا أن هذه السفن التي أنزلت في الإسكندرية نجحت في الإغارة على جزيرتي صقلية وسردينيا في عام ٧٥٢ م / ١٣٤ هـ^(٢)

٢ - وفي سنة ٧٥٠ م أيضاً اخترع مصري يطلق عليه كاتب سيرة حياة البطريرك ميخائيل اسم (عبد الرحيم) طريقة تجعل السفن الحربية المصرية منيعة أمام النار الإغريقية . وذكر هذا المصدر أن عبد الرحيم هذا كان مسئولاً عن كل ترسانات مصر ، وأن الاختراع المذكور هو قطن مخلوط ببعض المعادن . كما يروى كاتب السيرة أيضاً إنه رأى أثر الاختراع بعينه فقد ضربت النار الإغريقية السفن ، ولم تشتعل بل انطفأت النار في الحال^(٣) ونحن هنا أمام محاولة علمية حقيقية لتعزيز قدرة السفن الحربية المصرية على الصمود أمام اخطر وأقوى الأسلحة البحرية المعروفة في ذلك الوقت ، وهي النار الإغريقية ، وإذا لم تكن هذه المحاولة قد تمت في إطار تطوير الأسطول الحربي في مصر بعد هزيمته في قبرص بسبب النار الإغريقية ، فما جدواها إذن ؟ ولماذا أوردتها

^(١) ساويرس بن المقفع ، تاريخ بطاركة الإسكندرية ، إعداد الأنبا صموئيل ، النعام للطباعة والتوريدات ، القاهرة ، ١٩٩٩ ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

^(٢) وديع فتحي عبد الله ، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي (٧٤١ - ٨٢٠ م / ١٢٤ - ٢٠٥ هـ) ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٠ ، ص ١٣٧ .

^(٣) - ساويرس بن المقفع ، بطاركة الإسكندرية ، ج ١ ، ص ١٥١ .

المصدر بهذا التفصيل ؟ إن المعنى الوحيد الذى يمكن استخلاصه من هذه الواقعة ، التى تزامنت مع إنزال سفن جديدة فى الإسكندرية على النحو الوارد فى الفقرة السابقة هو أن إبادة الأسطول الإسلامى المصرى أمام قبرص فى سنة ٧٤٧ م لم تكن إلا حلقة فى سلسلة من الكر والفر ، أو الحرب السجال التى دارت فى البحار بين الإمبراطورية البيزنطية والعالم الإسلامى ، أى أنها لم تكن إلا كبوة سرعان ما نهضت بعدها البحرية المصرية تجدد شبابها وتبنى سفنها وتعزز دفاعاتها . ولكن ما يمكن أن نستدل عليه من رواية هذا الاختراع العجيب لا تتوقف عند هذا الحد . ففى رواية كاتب سيرة البطريق ميخائيل أكثر من تلميح إلى طبيعة النشاط البحرى فى ذلك العام . من ذلك إنه رأى بعينه أن النار الإغريقية قد ضربت السفن ولم تشتعل ، بل انطفأت النار فى الحال . فمتى كان ذلك إن لم يكن قد جرى اشتباك فعلى بين السفن البيزنطية والسفن المصرية ؟ إننا لا نعرف شيئاً عن هذا الاشتباك ولكن إشارة المصدر إليه واضحة . فإذا أضفنا إلى ذلك إشارته إلى أن الشخص المسئول عن هذا الاختراع هو نفسه المسئول عن " كل " أحواض السفن أدركنا دون عناء أنه فى سنة ٧٥٠ م كانت توجد فى مصر عدة أحواض للسفن ، يتولى مسئوليتها كلها شخص واحد ذكر المصدر أيضاً أنه مسئول عن شئون الحكم .

٣ - تفصل سيرة حياة البطريق ميخائيل رواية المعارك التى جرت فى مصر بين الأمويين وأنصار العباسيين فى الفترة من ٧٤٤ م إلى ٧٥٠ م ، فنذكر أن قوات الأمويين أحرقت كل السفن التى استطاعت الوصول إليها على الجانب الشرقى من النيل لمنع أعدائهم من عبوره ، بل أن الابن الأصغر لمروان حاول إحراق المباني الموجودة على جزيرة الروضة وسفن الأسطول الراسية هناك ولكنه لم ينجح وأطفاً السكان النيران فأنقذوا عدداً من السفن^(١) ونخلص من هذه الرواية إلى أن الأسطول المصرى كان

(١) . Kubiak, Damietta, p 48 .

له وجود ملموس ومؤثر على نهر النيل عند وقوع المعارك بين الأمويين والعباسيين وقبيل إحراق الأمويين لسفن هذا الأسطول في سنة ٧٥٠ م .

٤ - وفي أبريل ٧٥٤ م ، أرسل عامر بن إسماعيل من قبل صالح بن علي حاكم مصر إلى الإسكندرية ليجهز المراكب إلى طرابلس كما ذكر الكندي ، وإن كان البعض قد ذكر أن وجهة الحملة كانت برقة (١)

٥ - وحوالي سنة ٧٧٠ م ، يؤكد لنا كاتب سيرة حياة البطريك مينا أن الشيطان أوعز إلى راهب شماس اسمه بطرس أن يطلب الأسقفية ولم يكن أهلاً لها . ولما رفض البطريك طلبه ، جمع مالا كثيراً وتقرب إلى الخليفة أبي جعفر فحصل منه على خطاب إلى عبد الله بن عبد الرحمن والى مصر ليقيمه بطريكاً على مصر . فاستدعى الوالي البطريك من الإسكندرية ورفض البطريك تنفيذ الأمر فأمر الوالي باعتقاله واستدعى الأساقفة ظناً منه أنهم سيطيعون بطرس ، ولكنهم قاوموه ومنعوه من الصلاة كبطريك . فغضب عليهم وأمر باعتقالهم وتكبيهم بقيود حديدية في رقابهم وأرجلهم وقال للبطريك مينا " لن يعمل أحد المشاق بالزفت غيرك وأساقفتك بأيديكم " فاجابه البطريك : " أنا أفعل هذا مسروراً " فألزم هذا المخالف (بطرس) الأب البطريك مينا والأساقفة بالعمل بأيديهم في صناعة المراكب لمدة عام وتحت حرارة الشمس في فصل الصيف أمام الناس (٢) ورغم أن هذه الرواية تتعلق باضطهاد رجل دين مسيحي على يد رجل دين مسيحي منافس له ، فإنها تتطوى على إشارة لا تخفي إلى أن العمل في ترسانة الفسطاط كان يجرى في ذلك الوقت ، وبالتالي فإن وجود الأسطول في ذلك العام كان أمراً مؤكداً فالعمل الوحيد الذي يناف بالتلسانات أو دور الصناعة كما كان يطلق عليها هو بناء السفن أو إصلاحها .

(١) الكندي ، تاريخ ولاية مصر ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ص ٨٥ . راجع أيضاً :

Kubiak, Damietta, p 49 .

(٢) ساويرس بن المقفع ، بطارقة الإسكندرية ، ج ١ ، ص ٢٠١ .

٦ - وفى سنة ٧٩٠ م / ١٧٤ هـ ، كانت بعض السفن الإسلامية فى طريقها من مصر إلى الشام حاملة قوات عسكرية استعداداً لشن هجوم على قبرص ، ولكن أسطولاً بيزنطياً هاجمها وأسر عدداً من جنود البحرية المصرية . فرد هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٨ هـ / ٧٨٦ - ٨١٣ م) بإرسال أسطول إلى قبرص اشتبك مع أسطول أرسلته الإمبراطورة إيرين (٧٩٧ - ٨٠٢ م) فى معركة حامية تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة ، وكان النصر فيها للعباسيين الذين أسروا أمير البحر ثيوفيلوس وعرض عليه هارون الانضمام إلى المسلمين فرفض فقتله هارون (١) .

٧ - وفى سنة ٨٠٦ م / ١٩٠ هـ ، ولى الرشيد حميد بن معيوف الحمدانى سواحل بحر الشام ومصر ، فغزا جزيرة قبرص عندما نقض أهلها العهد مع المسلمين ، فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفاً (٢) كما غزا جزيرة كريت (٣)

٨ - وفى سنة ٨٠٧ م / ١٩١ هـ أغار حميد بن معيوف على جزيرة رودس ، وعاد محملاً بالغنائم والأسرى ، ولكن العواصف دمرت أسطوله فى طريق العودة (٤) . كما قام الأسطول العباسي بقيادة حميد أيضاً بمهاجمة كريت فى نفس العام وسيطر على بعضها ، ولكن بيزنطة استعادتها بعد ذلك (٥)

(١) Theophanes, Chronographia, Col. 936 ; 73 ; Cf. Also : Brooks, Relations , pp 385 ff; (١) Canar, Marius, Byzantium and the Muslim World to the Middle of the Eleventh Century, in: C.M.H., Vol.IV, Part I, Cambridge, 1967, p 706.

(٢) الطبري (محمد بن جرير) ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م ، ج ١٠ ، ص ٩٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ج ٦ ، ص ١٩٦ ؛ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة ، القاهرة ، ١٣٩٥ هـ ، ١٩٧٥ م ، ص ٤٦٠ .

(٣) البلاذرى (أبو الحسن أحمد بن يحيى) ، فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، ١٩٨٧ م ، ص ٣٣٠ .

(٤) Theophanes, Chronographia, Col. 972 ; Cedrenus, Historiarum, pp (٤) 69-73 ; Cf. Also : Finlay, George, History of the Byzantine Empire from DCCXVI to, MLVII , London, 1906, p 95. Cedrenus, Historiarum, pp 70-72. (٥)

٩٠ - وأخيراً ، فقد شهدت مصر فى سنة ٨١٤ م / ١٩٩ هـ حدثاً مهماً كانت له آثار بعيدة على الصعيدين المحلى والدولى ، وهو قدوم طائفة من المغامرين عرفوا فى التاريخ باسم الأندلسيين وكانت حقيقتهم مثار جدل كبير انتهى إلى أنهم كانوا خليطاً من الغزاة البحرينيين الذين اعتادوا النزول بمياه الإسكندرية بعد كل غزو يقومون به لسواحل أوروبا الجنوبية وجزر البحر المتوسط ^(١) ، وثورا حى الربض بقرطبة الذين تفرقوا فى البلاد الأندلسية خوفاً من بطش الأمير الحَكَم بهم ^(٢) . وقد أقام الأندلسيون فى الإسكندرية من سنة ٨١٤ م / ١٩٩ هـ حتى سنة ٨٢٧ م / ٢١٢ هـ ، وتمكنوا من استغلال الأوضاع السياسية السيئة فى مصر ، والنزاع بين العرب على ولاية الإسكندرية فدخلوا طرفاً فى النزاع حتى استولوا على الإسكندرية عنوة واستبدوا بثئونها . وهنا أرسل الخليفة المأمون قائده عبد الله بن طاهر الذى سيطر على الأوضاع ، وأخرج الأندلسيين من مصر فى سنة ٨٢٧ م / ٢١٢ هـ ^(٣) ، فتوجهوا إلى كريت لسابق معرفتهم بها حيث كانوا قد أغاروا عليها أكثر من مرة ^(٤) . الأندلسيين الذين رسوا بمراكبهم على شاطئ الإسكندرية فى عام ٨١٤ م / ١٩٩ هـ جاءوا فى أربعين مركب ^(١) ، وحدد اليعقوبى عددهم بأربعة آلاف رجل ^(٢) .

ولا شك أن وجود أسطول حربي قوامه أربعون سفينة بأطقمها من الملاحين والمحاربين ، الذين لا عمل لهم إلا الغزو والقتال ، كان يمثل إضافة لا يستهان بها للدفاعات الساحلية . ثم إن هذا العدد الكبير من السفن كان يحتاج

١ - الكندى ، ولاة مصر ، ص ١٢٥ .

٢ - ابن عذارى المراكشى ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، نشر وتحقيق : س . كولان ، وليفى بروفنسال ، ج ١ ، ليدن ، ١٩٤٩ ، ص ص ٧٦ - ٧٧

٣ - اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ٤٦١ ؛ الكندى ، ولاة مصر ، ص ١٥٨ ؛ راجع أيضاً : السيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادى ، تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٣ ، ج ٢ ، ص ١ ، ج ١ ، ص ٤١ .

٤ - ساويرس بن المقفع ، بطارقة الإسكندرية ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

^(١) الكندى ، ولاة مصر ، ص ١٣٠ .

^(٢) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ص ٤٤٦ .

إلى عناية وإصلاح ، بل وإلى سفن جديدة تحل محل السفن القديمة أو المدمرة .
أى أن أحواض السفن فى الإسكندرية شهدت نشاطاً كبيراً أثناء وجود هذا
الأسطول بها ، وهو ما يتناقض مع القول بتوقف النشاط البحري تماماً فى
مصر فى هذه الفترة (١)

ثانياً - استيلاء المسلمين على كريت وإخفاق المحاولات

البيزنطية لاستردادها

كان طرد الأندلسيين من مصر فى سنة ٨٢٧ م/١٢١ هـ على يد
عبد الله بن طاهر ، إثر الاضطرابات التى أحدثوها فى الإسكندرية فاتحة
خير لهم وللمسلمين ونذير شؤم للبيزنطيين (٢)؛ إذ إنهم توجهوا إلى كريت
كما سبق القول لمعرفة بها ، فأقاموا بها ملكاً وراثياً دام لأكثر من مائة
وثلاثين سنة (٣)

(١) - Kubiak, Damietta, p 53 .

(٢) ذكرت المصادر البيزنطية أن هذا الفتح تم أثناء انشغال الإمبراطور ميخائيل الثانى بالقضاء على ثورة توماس الصقلية أو بعدها ، أى بين الفترة من ٨٢١ : ٨٢٣ م . انظر

Monachus, G., (Imperatorum), Vita Recentiorum Imperatorum, in Theophanes Continuatus , Ed. Bekker, I, C. S. H. B. , 1838, p 787; Constantine Porphyrogenetus, De Administrando Imperio, Ed, Bekker, I, C. S. H. B., Bonne, 1840, Ch 22, p 104 ; Theophanes Continuatus, Historia, Ed. Bekker, I ,C. S. H. B., Bonn, 1838, pp 73 – 74; Symeon Magister (Logothete), Chronographia, in Theophanes Continuatus., Ed. I. Bekker (Bonn, 1838) pp.758 – 760; Zonaras, I., Epitome Historiarum, ed. M. Pindar, B. Buttner, Wobst, 5 vols, Bonn, 1841- 1897, Tome III, pp 347- 348 ; Genesisius, J., Regna. Ed. Lachman, C., C. S. H. B., Bonn, 1834, pp 48-49.

بينما ذكر الطبرى أن الفتح الإسلامى لكريت كان فى ربيع الأول عام ٢١٢ هـ النصف الثانى من يونيو ٨٢٧ م ، وهو الرأى الأقرب إلى الصحة ؛ لا سيما وأن المؤرخين البيزنطيين قد أهملوا تماماً خروج الأندلسيين من مصر ، بينما كان الطبرى ، والمؤرخون العرب بشكل عام ، أكثر دقة فى تتبع حركة الأندلسيين حتى خروجهم من مصر . انظر : الطبرى ، تاريخ الرسل ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥ – ٢٧٦ ؛ وأيضاً : إسمت غنيم ، الإمبراطورية البيزنطية ، دار المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٣ ، ص ٦٥-٦٦ .

(٣) Genesisius, Regna, p. 47 ، وقد تعاقب على حكم كريت أبو حفص عمر بن شعيب (ت ٨٦٤ م / ٢٥٠ هـ) وابنه شعيب بن عمر ثم حفيده عبد العزيز بن شعيب ، انظر إبراهيم على طرخان ، المسلمون فى أوروبا فى العصور الوسطى ، مشروع الألف كتاب ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٨٦ .

وأذاقوا البيزنطيين الأمرين ، وكانوا عزاً للإسلام والمسلمين فى حوض البحر المتوسط ، وأثبتت الأحداث بعد ذلك صدق مقولة ياقوت من أن كريت كانت " من أعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم " (١) إذ ما لبثت كريت أن دخلت فى طاعة الخليفة العباسي لتستظل بحمايته ، وأصبحت كريت فى التقسيم الإداري للدولة العباسية إقليمياً تابعاً لمصر (٢) . وامتدت سيطرة المسلمين على مقدرات الأمور فى هذه الجزيرة لأكثر من قرن من الزمان بين سنتي ٨٢٧ م / ٢١٢ هـ و ٩٦١ م / ٣٥٠ هـ . وتنبهت الدولة البيزنطية إلى خطورة استقرار المسلمين فى كريت ، فبدأت سلسلة من المحاولات المستميتة لاستردادها منهم نوردها فيما يلي بشيء من التفصيل ، لأهميتها كواحدة من المقدمات التاريخية - على المدى البعيد - للهجوم البيزنطي على دمياط فى ٨٥٣ م / ٢٣٨ هـ - ١ - فى سنة ٨٢٨ م ، أرسل الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثانى (٨٢٠ - ٨٢٩ م) قائده فوتينوس حاكماً لجزيرة كريت . ولكنه وقف عاجزاً عن مهاجمتها ، وطلب العون من الإمبراطور الذى أرسل إليه القائد دميان على رأس جيش كبير . ولكن النصر كان حليف المسلمين ولقى دميان حتفه وفر فوتينوس فى قارب (٣)

٢ - وفى خريف ٨٢٨ م ، أرسل ميخائيل الثانى إلى كريت حملة بحرية أخرى تتألف من سبعين سفينة تحت قيادة كراتيروس ، الذى انتصر على

(١) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، طبعة بيروت ، ١٩٥٥ ، المجلد الأول ، ص ٢٣٦ .

(٢) أبو حنيفة محمد النعمان ، المجالس والمسائرات ، تحقيق الحبيب الفقيه ، دار المنتظر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٦ م ، ص ٤٤٣ - ٤٤٥ ؛ وانظر أيضاً : السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية ، ج ١ ، ص ٣٩ .

(٣) Theophanes Continuatus, Historia, pp 67-77; Cedrenus, Historiarum, (٢) p 94; Zonaras, Epitome, Tome III, p 399.

وانظر أيضاً :- على محمد فهمى ، البحرية الإسلامية فى شرق البحر المتوسط من القرن السابع إلى العاشر الميلادي ، فى : تاريخ البحرية المصرية ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٣ ، ص ٣١٣ .

المسلمين الذين انسحبوا إلى داخل الجزيرة ، ولم يتعقبهم البيزنطيون فعادوا ليلاً وهاجموهم وأبادوهم عن آخرهم وشنقوا كراتيروس^(١)

٣ - وفي وقت ما ، خلال عامي ٨٢٨ و ٨٢٩ م ، نظم ميخائيل الثاني حملة ثالثة لإسترداد كريت عهد بقيادتها إلى قائد يدعى أوريفاس . ولكن جزءاً من أسطول هذه الحملة وقع في كمين أعده المسلمون بينما اشترك الجزء الباقي في معركة بحرية مع المسلمين دمر خلالها^(٢)

٤ - وفي عصر الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل (٨٢٩ - ٨٤٢ م) ، توقفت محاولات الإمبراطورية البيزنطية لاسترداد كريت رغم الغارات العنيفة التي شنّها مسلمو كريت على الممتلكات البيزنطية . فبمجرد أن تولى ثيوفيل العرش في أكتوبر ٨٢٩ م ، خرجت من كريت حملة بحرية قدر المؤرخ البيزنطي موناخوس عدد سفنها بخمسين سفينة حربية هاجمت شواطئ أيونيا وكاريا على الساحل الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى ، كما هاجمت أديرة الرهبان في جبل آتوس^(٣) ثم أغار أسطول من كريت في عام ٨٢٩ م على سواحل تراقيا واستولى المسلمون على غنائم وأسرى ، ولكن كونتوميتيس حاكم تراقيا فاجأ الأسطول الكريتي ، ودمره تماماً حسب رواية صاحب صلة ثيوفان^(٤) ولكن الأسطول الكريتي تقابل أثناء إغارته على جزر السيكلاديز Cyclades - بعد وقت قصير من هذه المعركة - مع أسطول بيزنطي عند جزيرة تاسوس في بحر إيجه ، وأوقع المسلمون بالأسطول البيزنطي هزيمة مروعة ودمروه تماماً^(٢) . ويمكن القول بان

(١) Symeon Magister, Chronographia, pp.621 – 623; Genesisus, Regna, pp 48-49; (٢) Theophanes Continuatus, Historia, pp 79 – 80; Zonaras, Epitome, p 350. Symeon Magister, Chronographia, pp.621– 623; Genesisus, (٣) Regna, p 50; Theophanes Continuatus, Historia, p 81

(٤) ٤ - وهو أحد الجبال الموجودة في منطقة ميزيا السفلى في آسيا الصغرى . انظر : Theophanes Continuatus, Historia, p 137; Monachus, Imperatorum, pp 791 – 792; Cf. Also: Bury, J.B., A History of the Eastern Roman Empire from the Fall of Irene to the Accession of Basil I, 802-867, London,1912, pp 290-291.

(٤) Theophanes Continuatus, Historia, p 137. (٢) Theophanes Continuatus, Historia, p 137.

السبب فى أن الإمبراطور ثيوفيل لم يبذل أية محاولات عسكرية لاسترداد كريت يرجع إلى انشغاله بالحروب مع المسلمين على الجبهة الشرقية للإمبراطورية وهى الحروب التى استحوذت على جانب كبير من اهتمامه ونشاطه العسكري طوال عهده^(٣).

٥ - وإذا كان الصراع مع العباسيين قد صرف ثيوفيل عن محاولة استرداد كريت ، فإن الهزائم التى أنزلها مسلمو كريت بالإمبراطورية البيزنطية قد دفعت ثيوفيل دون شك إلى التماس المساعدة العسكرية من خارج الإمبراطورية . فيحكى لنا المؤرخ المغربي المقرئ عن سفارة أرسلها الإمبراطور ثيوفيل إلى الخليفة الأموي عبد الرحمن الثاني (٢٠٧ / ٢٨٣ هـ / ٨٢٢ - ٨٥٢ م) وذلك فى عام ٢٢٥ هـ (٨٣٩ - ٨٤٠ م) ، يطلب منه التعاون معاً فى عمل عسكري مشترك ضد العباسيين فى المشرق وضد جزيرة كريت أيضاً ، بحيث يؤول ملك العباسيين إلى الأمير الأموى ، أما كريت فلم يوضح ماذا سيتم بشأنها . ومن المرجح إنه طلب أن تعود إلى الدولة البيزنطية ، أو على الأقل يمنع المسلمون بها من الإغارة على الممتلكات البيزنطية ولكن الأمير الأموي رد عليه برسالة مطولة لم يتقيد فيها بشيء^(١) ، ولم يعده بالتدخل السريع ضد كريت الإسلامية غير أنه وعده بالتدخل الفعلي فى حالة نجاح حلفهم المقبل واستعادته لملك أسلافه فى المشرق ، ولكن مشروع هذا التحالف لم يخرج

Theophanes Continuatus, Historia, p 137. (٣)

وانظر أيضاً : إسمت غنيم ، كريت ، ص ص ١١١ - ١١٢ ؛ وديع فتحي عبد الله ، العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية والخلافة العباسية فى عهد الإمبراطور ثيوفيلوس ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، يناير ، ١٩٨٢ ، الفصلين الثانى والثالث .

(١) المقرئ ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق وتعليق محمد محى الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ، القاهرة (مطبعة السعادة) ، ١٩٤٩م / ١٣٦٧ هـ ، ج ٢ ، ص ٨١ ؛

وانظر أيضاً : Finlay, Hist of the Byz Empire, p128.

إلى حيز التنفيذ لانصراف الأمير عبد الرحمن إلى مواجهة الأزمات الداخلية فى بلاده^(١) وإلى محاربة الإمبراطورية الرومانية الغربية^(٢).

٦ - وبعد موت ثيوفيل فى ٨٤٢ م وتولى ميخائيل الثالث ٨٤٢ - ٨٦٧ م الحكم تحت وصاية أمة ثيودورا ، تولى اللوجوثيت ثيوكتيستوس قيادة حملة بحرية على كريت فى ١٨ مارس سنة ٨٤٣ م / ٢٢٩ هـ ، وأرسى بأسطوله على ساحل كريت ، ونجح فى التغلب على المسلمين ، فعمد هؤلاء إلى الحيلة وأشاعوا أن متأمريين فى القسطنطينية يقومون بخلع الإمبراطور ، فعاد ثيوكتيستوس على الفور إلى القسطنطينية تاركاً جنده تحت رحمة المسلمين فمנית الحملة بالإخفاق وعادت أساطيل كريت تهدد سواحل القسطنطينية نفسها^(٣)

وبالإضافة إلى استيلاء المسلمين على كريت وإخفاق البيزنطيين فى انتزاعها منهم مرة أخرى ، فإن محافظة مسلمى كريت على صلتهن بمصر تعتبر من المقدمات التاريخية - بل من الدوافع الأساسية - التى يتعين وضعها فى الاعتبار عند دراسة الأسباب الحقيقية وراء الهجوم البيزنطى على مدينة دمياط . فضلاً عن أن كريت أصبحت تابعة لمصر من الناحية الإدارية إثر انضوائها تحت لواء الدولة العباسية كما سبق القول ، فقد

(١) محمد محمد مرسى الشيخ ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين فى الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادى ، الإسكندرية ، ١٩٨١م ، ص ٨٩ - ٩٠ .

(٢) المقرئ ، نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٣٢٤ ؛ وانظر أيضاً : إبراهيم على طرخان ، المسلمون فى أوربا فى العصور الوسطى ، مشروع الألف كتاب ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ ؛ إسمنت غنيم ، كريت ، ص ١٢٨-١٢٨ ؛ وديع فتحى عبد الله ، ثيوفيلوس ، ص ٢٣٣ - ٢٣٩ .

(٣) Georgius Hamartolus Monachus, Chronicon, P.G.M., Tome CX, Paris, 1863, Col. 772; Leo Grammaticus, Chronographia, Ed. Bekker, I, C. S. H. B., Bonn, 1842, p. 229; Symeon Magister, Chronographia, p. 654 .

وانظر أيضاً : فازيليف ، العرب والروم ، الترجمة العربية ، محمد عبد الهادى شعيره ، دار الفكر العربى ، ص ١٧٢ ، إبراهيم العدوي ، إفريقيا ، بين المسلمين والبيزنطيين فى القرن التاسع الميلادى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الثانى ، أكتوبر ١٩٥٠ ، ص ٦٣ ؛ فتحى عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ١٨٧ ، السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٨٦ .

حافظ الأندلسيون على صلتهم بمصر فى العصور المتأخرة عندما استوطنوا كريت فعلاً . وكانت الموانئ المصرية تمثل أسواقهم الرئيسية لبيع فائض غنائمهم وبضائعهم بل ربما بنت لهم بعض السفن الجديدة (١) وفى ذلك قال المؤرخ أبو حنيفة النعمان " . ومراكبهم بخيرات بلدهم وأطعمتهم تمير أهل مصر ، وهداياهم تصل إلى عمالها " (٢) ومما يذكر إنه كان يحمل من كريت العسل والنحل والجبن الكثير لمصر (٣) أما مصر فكانت تمد كريت بكل ما تحتاجه من أسلحة (٤) ، حتى غدت دار الصناعة لقرصنة كريت على حد تعبير المؤرخ فازيليف (٥)

ومن هذا المنطلق ، فإن العلاقات الوثيقة التى ربطت بين كريت الإسلامية ومصر ، بكل ما تمثله من ثقل فى ميزان العلاقات الدولية فى حوض البحر المتوسط فى ذلك العصر ، كانت حافزاً قوياً يدفع الإمبراطورية البيزنطية دفعاً إلى اتخاذ موقف عدائى من مصر وثور مصر باعتبارها القاعدة التى تركز إليها إغارات المسلمين المتكررة على السواحل والممتلكات البيزنطية . وعندما توجه الأسطول البيزنطى لمهاجمة دمياط ، فإنه إنما كان يهاجم كريت بصورة غير مباشرة . ولو جاز لنا أن نعتبر كريت - من المنظور الاستراتيجى - قاعدة بحرية متقدمة للخلافة العباسية فى البحر المتوسط تتبع مصر إدارياً ، فإنه يترتب على ذلك أن تكون مصر هى العمق الاستراتيجى لكريت فى هذا البحر بحكم الموقع الجغرافى ، ثم بحكم علاقات الود والصداقة التى ربطت بين مصر وكريت . فكان من المنطقى والحال كذلك أن توجه بيزنطة ضرباتها إلى العمق الاستراتيجى لكريت بعد أن منيت جميع المحاولات البيزنطية لاسترداد الجزيرة أو درء خطرها بالهزيمة والإخفاق .

(١) . Kubiak, Damietta, p 54 .

(٢) النعمان ، المجالس ، ص ٤٤٤ .

(٣) إسمنت غنيم ، كريت ، ص ١٣٧ .

(٤) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٤ .

(٥) فازيليف : العرب والروم ، ص ١٨٧ .

ولا يغيب عنا في هذا المقام أن مصر كانت تمثل الجبهة الغربية المعادية للإمبراطورية البيزنطية في حربها مع الخلافة العباسية ، وهو ما حدا ببعض المؤرخين إلى اعتبار هجوم الأساطيل البيزنطية على دمياط في ٨٥٣ رداً على الغارات الموجهة التي شنها على بن يحيى الأرمني على الإمبراطورية البيزنطية في ثغور الشام في ٨٥١ و ٨٥٢ م^(١) . ومرة أخرى يبرز الدور الإقليمي لمصر بحكم الموقع الجغرافي من ناحية وبحكم الانتماء الديني من ناحية أخرى .

ثالثاً : فتح المسلمين لصقلية وانهايار السيطرة البيزنطية على

البحر المتوسط

في النصف الثاني من شهر يونيو عام ٨٢٧ م ، خرج الأندلسيون من الإسكندرية إلى كريت وتم لهم فتحها . وفي الرابع عشر من يونيو من نفس السنة ، خرج أسطولان من خليج سوسة على الساحل الإفريقي ، أحدهما تحت قيادة أسد بن الفرات قاضي القيروان في عهد الأمير زيادة الله بن الأغلب ، والآخر تحت قيادة إيفيميوس قائد أسطول صقلية الذي تمرد على الإمبراطور ميخائيل الثاني ، وأعلن نفسه إمبراطوراً وطلب العون من زيادة الله للاستيلاء على الجزيرة ليحكمها إيفيميوس بلقب (الإمبراطور) على أن يدفع الجزية للأمير الأغلب^(٢) وبلغ الأسطولان صقلية في السابع عشر من نفس الشهر ، ونزل الجند إلى مدينة مازارا وسيطروا على المدينة في لمح البصر بعد هجوم وصفه المؤرخون بإنه أعنف هجوم إسلامي تعرضت له الجزيرة^(٣) . وبدأ بهذا الفتح فصل جديد

^(١) انفراد الطبري يذكر هذه الغارات ، ونقلها عنه ابن الأثير ، انظر : الطبري، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩١ ، وص ١٩٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ص ١١٥ .

^(٢) فازيليف ، العرب والروم ، ص ٧١ - ٧٢ ؛ راجع أيضاً : Bury, E. R. E., p. 299

^(٣) - (Genesius, Regna, p 44-47; Theophanes Continuatus, Historia, p 81; Monachus, Imperatorum, pp 786 - 790.

وانظر أيضاً : - محمد محمود منصور محمد ، بيزنطة ومسلمو أفريقيا في عهد الأسرتين الأيسورية والعمورية، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة بنها ، ١٩٩٣ ، ص ١٢٧ - ١٣٢ .

من مآثر المسلمين فى غرب البحر المتوسط ، و اللافت للنظر فى هذا الصدد هذا التزامن بين بدء السيطرة الإسلامية على كريت من جانب ، واندلاع شرارة الفتوحات الإسلامية لصقلية من جانب آخر . وبذلك يمكن القول بأن الوجود الإسلامى فى البحر المتوسط أصبح سيقاً مسلطاً على أعناق البيزنطيين . ورغم تنكر إيفيميوس لأسد بن الفرات واتصاله بالبيزنطيين لحثهم على مقاتلة المسلمين (١) فقد واصل أسد بن الفرات تقدمه إلى سيراكوزا عاصمة الجزيرة آنذاك (٢) وجاءته الإمدادات من أفريقيا والأندلس (٣) ، وحاصر سيراكوزا حتى عام ٨٢٨ م / ٢١٣ هـ . غير أن نفشى الوباء بين صفوف المسلمين أضعف موقفهم وأجبرهم على رفع الحصار (٤) ومع ذلك ، فقد استعاد الجيش الإسلامى شجاعته بعد انتهاء الوباء وواصل تقدمه واستولى على بعض حصون الجزيرة (٥) واستمرت الحرب سجالاً بين الطرفين حتى استولى المسلمون على باليرمو فى سنة ٨٣١ م بعد أن حاصروها لمدة سنة ، وأصبحت باليرمو هى القاعدة التى تخرج منها الأساطيل الإسلامية لمهاجمة سواحل إيطاليا والتعرض لمهاجمتها ، ومهاجمة ما بقى للبيزنطيين من موانئ بالجزيرة (٦)

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ١١٧ - ١١٩ ، انظر أيضاً :-

Bury, E. R. E., p. 299 ; Amari, M., Storia dei Muslmani de Sicila, Vol. I, Siconda Edizione Modificata, Catania, 1933, p 395
Theophanes Continuatus, Historia, p 77; Cf. Also : Finlay, Hist of (٢)
the Byz Empire, p 138

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ١١٨ ، وانظر أيضاً :

Constantine Porphyrogenetus, Historia De Vita Rebus Gestis Basilu In Theophanes Continuatus, Liber 5, P. G. M., Tome CIX, Paris 1863, Cols. 304-305 . Cf. Also : Bury, E. R. E., p. 300.

Theophanes Continuatus, Historia, p 81; Cedrenus, Historiarum, p 94; (٤)
Cf. Also : Amari, Sicila, Vol 2, p5 .

(٥) - استولى المسلمون على حصن ميناو Mineo ، ثم على حصن جرجنت Greigento . انظر :
ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٢٠٠ - ٢٠٣ ؛ انظر أيضاً :

Symeon Magister, Chronographia, p 654; Cf. Also : Finlay, Hist of the Byz Empire, p 138

(٦) السيد الباز العربى ، الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٢ ، ص ٢٧٣ ؛ وانظر أيضاً :
Vasiliev, A. A., History of the Byzantine Empire 324 - 1453, the University of Wisconsin Press, 1952, P 118

وفى الفترة من ٨٤١ م إلى ٨٥١ م ، استمر تقدم المسلمين فى الجزيرة ، فاستولوا على كالتاجيرونى Caltagironi ومسينا Messina ، ومودىكا Modica ، ليوننتيني Leontini ، وراجوزا Ragusa^(١) ومع تولي عباس بن الفضل قيادة القوات الإسلامية فى صقلية خلفاً لأبيه الفضل بن جعفر فى ٨٥١ م ، زادت وتيرة الغزو فأرسل السرايا إلى سيراكوزا وراجوزا وغيرهما من الحصون الهامة ، كما حاصر بثيرة Butera فى عام ٨٥٢ م لمدة خمسة أشهر حتى استسلمت^(٢) ومن ذلك يتبين لنا أن سقوط صقلية فى يد مسلمي أفريقيا ، الذى تزامن بشكل غريب مع استيلاء الأندلسيين على كريت ، قد لعب دون شك دوراً كبيراً فى التمهيد للهجوم البيزنطى على دمياط فى عام ٨٥٣ م كأحد الدوافع الحقيقية التى حاول البيزنطيون من خلالها استعادة بعض ما فقدوه فى البحر المتوسط .

أهداف الهجوم

هيأت هذه المقدمات التاريخية التى استمرت لأكثر من قرن من الزمان بين سنتى ٧٤٧ م ، ٨٥٣ م المسرح السياسي والعسكري لفصل جديد من ملحمة الصراع البيزنطى - الإسلامى فى حوض البحر المتوسط تمثل فى الهجوم البيزنطى على مدينة دمياط فى غيبة من جندها وحامياتها . ولا شك أن مسألة استنباط الأسباب المباشرة لهذا الهجوم تبدو صعبة بسبب صمت المصادر البيزنطية إزاء هذا الهجوم^(٣) وانفراد المؤرخين

^(١) ابن الأثير ، ج ٦ ، الكامل ، ص ٧٥ - ٧٦ ؛ راجع أيضاً : إبراهيم على طرخان ، المسلمون فى أوروبا ، ص ٩٤ ؛ وانظر أيضاً :

Bury, E. R. E., p. 306; Vasiliev, Hist of Byz Empire, p 180 , Amari, Sicilia, vol. 1 , p 315, Vol 2, pp 5-6.

^(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ، الكامل ، ص ١١٢ - ١١٣ ؛ راجع أيضاً : إبراهيم على طرخان ، المسلمون فى أوروبا ، ص ١٥١ ؛ وانظر أيضاً : Bury, E. R. E., p. 309.

^(٣) ربما يكون هذا الصمت متعمداً من المؤرخين البيزنطيين الموالين للأسرة المقدونية ، وذلك فى إطار سياسة تاريخية عامة تهدف إلى تشويه تاريخ الأسرة العمورية وإخفاء كثير من الانتصارات التى حققها أباطرة هذه الأسرة ، انظر : إسمت غنيم ، كريت ، ص ١٣٨ .

المسلمين كالطبري^(١) والكندي^(٢) وابن الأثير^(٣) وابن خلدون^(٤) والمقرئزي^(٥)،
بذكره . ومع ذلك ، فإن استقراء أحداث هذه الفترة مع الائتناس بآراء
المؤرخين المحدثين يمكن أن يساعد في استخلاص الأهداف الحقيقية لهذا
الهجوم ، ويقتضى التحليل الموضوعي لهذه الأهداف التمييز بين الهدف
الاستراتيجي العام ، وهو الهدف الذى يشكل الإطار العام للصراع بين
قوتين ، والأهداف التكتيكية ، أى تلك الأهداف التى يتوصل بها إلى تنفيذ
الهدف الاستراتيجي العام من خلال عمليات محددة تنفذها القوة المحاربة .

أ - الهدف الاستراتيجي :-

كان الهدف الاستراتيجي الكبير الذى تطمح الدولة البيزنطية إلى
تحقيقه فى الربع الثانى من القرن التاسع الميلادى هو القضاء على التهديد
الإسلامي للوجود البيزنطي فى البحر المتوسط . وقد برز هذا التهديد
بشكل واضح بعد استيلاء المسلمين على كريت فى سنة ٨٢٧ م ثم انطلاق
الحملة الإسلامية من شمال أفريقيا لفتح صقلية بدءاً من هذا التاريخ أيضاً
وفضلاً عن الهزائم المتلاحقة التى أنزلها مسلمو كريت
بالإمبراطورية البيزنطية منذ فتحهم للجزيرة على النحو المبين فيما سبق ،
فقد كان الإخفاق هو مصير جميع المحاولات التى بذلها البيزنطيون
لاستردادها^(٦) وأصبح المسلمون يشكلون خطراً دائماً يهدد الإمبراطورية
البيزنطية^(٧) .

^(١) الطبري تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٣ - ١٩٥ .

^(٢) الكندي ، ولاة مصر ، ص ١٥٧ .

^(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ، الكامل ، ص ١١٧ .

^(٤) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب اللبناني ، القاهرة - بيروت ، ١٤٢٠ هـ /

١٩٩٩ م ، ص ٥٨٧ .

^(٥) المقرئزي المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، بولاق ١٢٧٠ هـ - ١٨٥٣ ، ج ١ ، ص

٤٠١ .

^(٦) انظر ما سبق ص ١١ - ١٣ .

^(٧) على محمد فهمى ، البحرية الإسلامية ، ص ٣١٤ .

وبالإضافة إلى التهديد القادم من كريت ، فتح غزو المسلمين لصقلية جبهة ثانية للقتال أمام الإمبراطورية البيزنطية^(١) وأدى إلى تشتت الجهود العسكرية للبيزنطيين في مواجهة المد الإسلامي الذي كان يجتاح البحر المتوسط ويهدد الوجود البيزنطي ذاته .

ب - الأهداف التكتيكية :-

وقد تمثلت هذه الأهداف في :-

١ - تدمير مركز إمداد مسلمي كريت بالأسلحة والعتاد والسفن ، حيث نما إلى علم المسؤولين في بيزنطة أن هناك شحنة من الأسلحة موجودة بمدينة دمياط في طريقها إلى كريت^(٢)، فكان لابد من الحيلولة دون وصول هذه الأسلحة إليها . ويؤيد ذلك ما استولى عليه الجند البيزنطيون من مؤن وذخيرة كانت معدة للشحن إلى كريت ذكر الطبري أنها كانت " نحواً من ألف فناة وآلتها " بالإضافة إلى إحراقهم لأشعة السفن المكسدة في المخازن البحرية بدمياط^(٣)

٢ - التخفيف من حدة ضغط المسلمين على القوات البيزنطية في صقلية . ورغم أن صاحب هذا الرأي ، المؤرخ الفرنسي هنري جريجوار ، لم يوضح موقف دمياط من الحرب بين المسلمين والبيزنطيين في صقلية ومدى تعاونها مع المسلمين^(٤)، فإن هذا الرأي يتسق مع سبقت الإشارة إليه من تزامن فتح صقلية مع وصول المسلمين إلى كريت وفتح جبهة قتال أخرى أمام البيزنطيين .

٣ - انتقام القائد البيزنطي ثيوكتيستوس لهزيمته عند محاولته استرداد كريت من المسلمين في سنة ٨٤٣ م . فقد استغل ثيوكتيستوس مكانته عند

^(١) إسمت غنيم ، كريت ، ص ١٠٥ ؛ إبراهيم العدوي ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٩٠ .

^(٢) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٤ .

^(٣) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٤ .

^(٤) H . Gregoire, Etudes Sur Le Neuvieme Siecle, in : Byzantion Revue, (Tome VIII, Bruxelles 1933, pp. 515 - 516 .-

الإمبراطورة تيودورا واستحوذ على السلطة طوال فترة وصاية هذه الإمبراطورة على ابنها ميخائيل الثالث ، وقرر معها الانتقام لما أنزله به المسلمون من هزيمة . ولكنه لم يستطع توجيه انتقامه إلى كريت فاختر دلتا وادى النيل نظراً للارتباط الذى كان قائماً بين مسلمى كريت وحكام مصر^(١). فهو بهجومه على دمياط كان فى الواقع يوجه ضربة إلى كريت

٤ - الرد على إغارات على بن يحيى الأرمني على الأراضى البيزنطية من ناحية الثغور الشامية فى عامى ٨٥١ ، ٨٥٢ م^(٢). ويبدو أن البيزنطيين قد عجزوا عن الرد على هذه الغارات على حدودهم الشرقية ، فوجهوا أسطولهم للرد فى دمياط باعتبار مصر أهم الولايات العباسية ورغم ما يشوب بعض هذه الأسباب التكتيكية من ضعف فى الاحتجاج لدى بعض المؤرخين ، فإن كلاً منها ينطوى بلا شك على جانب من الحقيقة ، وهى فى جملتها تشير بوضوح إلى أن كريت ظلت تمثل هاجساً أمنياً لدى البيزنطيين يثير فيهم شعوراً بالمرارة والأسى والعجز عن دفع هذا الخطر المحقق بهم فى كل وقت وأن ، ويجعلهم يتحنون الفرصة للخلاص منه ويلتمسون الأسباب لدفعه ولعل فى اختيارهم لدمياط هدفاً لهجومهم دليلاً على ذلك.

^(١) Theophanes Continuatus, Historia, pp 136-137 ; وانظر أيضاً : إسمت

غنيم ، كريت ، ص ١٣٧ .

^(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩١ ، ١٩٦ ؛ وابن الأثير ، الكامل ، ص ١١٥ .

الهجوم البيزنطي على دمياط

أ - دمياط :

يكتنف التاريخ المبكر لمدينة دمياط ^(١) غموض شديد وتمتاز فيه الحقائق بالأساطير . فلا نعرف متى تأسست ولا من أنشأها ولا ندرى ما إذا كانت فى أول أمرها مرفأً تجارياً صغيراً أو مركزاً حربياً أنشئ على مصب النيل فى العصر الفرعوني ^(٢) والثابت أن دمياط كانت تعرف فى العصور الإغريقية والرومانية باسم تامياتس ، وفى العصر القبطي باسم تاميات . وذهب بعض العلماء إلى أن معنى الاسم فى اللغة المصرية القديمة (الأرض الشمالية) أو (الأرض التى تثبت الكتان) ^(٣)

وقبل الفتح الإسلامى لمصر ظلت دمياط حوالى سبعة قرون خاضعة للدولة الرومانية التى لم يكن يهتما من أمر مصر غير استيراد الغلال ، وفرض الضرائب على الشعب ، وكان من مصلحة الدولة الرومانية تحصين الثغور المصرية وجعلها موانئ صالحة لرسو السفن ، ونقل التجارة فكانت السفن التجارية الحربية تنتقل فيما بين الثغور المصرية، ومنها دمياط ، وبين ثغور الإمبراطورية الرومانية ثم البيزنطية بعد ذلك ^(٤).

^(١) كانت دمياط فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى أقرب إلى البحر من المدينة التى أنشأها السلطان المملوكى بيبرس فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، وكانت تقع على الفرع الشرقى للنيل فى الدلتا على بعد اثنى عشر كيلو متراً من مصبه ، وكيلى متر واحد من بحيرة المنزلة التى تقع بين دمياط وبورسعيد، وكان فى شمالها نطاق من الرمال يفصلها عن البحر المتوسط ويكون مجازاً إلى البحر ، انظر: على محمد فهمى ، البحرية الإسلامية ، ص ٣١٨ . وعن موقع مدينة دمياط حالياً انظر الخريطة الملحقة فى نهاية هذا البحث .

^(٢) نقولا يوسف ، تاريخ دمياط منذ أقدم العصور ، الاتحاد القومى بدمياط ، بدون تاريخ ، ص ص ٢١ - ٢٣ .

^(٣) جمال الدين الشيال ، مجمل تاريخ دمياط سياسياً واقتصادياً ، مطبعة مدرسة دون بوسكو بالإسكندرية ، ١٩٤٩ م ، ص ٨ .

^(٤) نقولا يوسف ، دمياط منذ أقدم العصور ، ص ٧٢ .

وبعد الفتح العربي وانتشار العرب فى قرى مصر ، لم يجد العرب فى دمياط فيما يبدو ما يرغبهم فى المهاجرة إليها لأنها كانت مدينة ضيقة الرقعة مزدحمة بالسكان . وكان أهلها يشتغلون خاصة بالملاحة والتجارة والصناعة وهى حرف تركها العرب لأربابها فى القرون الأولى من الفتح ، فظلت أكثرية سكانها حتى القرن العاشر الميلادى وما بعده من القبط (١) وللأسف فإننا لا نعرف عن دمياط فى القرن الثامن غير القليل الضئيل ، وإن كان من المؤكد أن الموانئ المصرية المطلة على بحر الروم - ومنها دمياط - ظلت طوال العصر الإسلامى مصدر خطر عظيم لتعرضها لكثير من العدوان من جانب الروم (٢) ، ثم من جانب الصليبيين بعد ذلك (٣) ، الأمر الذى استلزم وضع الحاميات العسكرية فى الثغور كسياسة دفاعية فى مواجهة الهجمات الخارجية . فكانت الحاميات ترابط بكامل عدتها وعتادها فى الربيع والصيف حيث تكثرت الغزوات البحرية نظراً لملاءمة الأحوال الجوية لتجول السفن الحربية فى البحار . أما فصل الشتاء ، حيث تسود أحوال جوية غير ملائمة للملاحة ، فقد جعله المسلمون فترة استجمام للجند ، وكانت هذه الفترة يعقبها التجمع فى الفسطاط من جديد للتفتيش على الجند . ولم تكن الثغور فى فترة الشتاء تترك خالية ، فكان يربط بها حاميات قليلة العدد (٤) .

كان لوقوع دمياط على ثنية النيل البارزة أثره فى سهولة اتصال دمياط بداخل البلاد وخارجها مما ترتب عليه أن أصبحت دمياط من

(١) يستدل على ذلك من ضخامة الجزية التى كانت تجبى من الثغور الشمالية لمصر ، وهى جزية كانت تفرض على أهل الذمة فى هذه الثغور . انظر : صفاء حافظ أحمد عبد الفتاح ، الثغور المصرية من الفتح الإسلامى حتى نهاية العصر الفاطمى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ص ١٣٨ .

(٢) صفاء حافظ أحمد عبد الفتاح ، الثغور المصرية ، ص ٢٢٣ .

(٣) جمال الدين الشيبان ، تاريخ دمياط ، ص ١٧ .

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٩٣ ، ٩٨ - ٩٩ ؛ ابن مماتي ، قوانين الدواوين . تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ، ١٩٤٣ ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

أهم موانئ مصر التجارية وثغورها الحربية^(١)، كما أصبحت من أهم قواعد الأسطول الإسلامي في مصر لوقوعها على شاطئ بحر الروم عند مصب فرع النيل ، وهو ما ساعد على سهولة إبحار السفن الحربية من داخل البلاد - حيث تقع دور الصناعة في الفسطاط والقاهرة - إلى بحر الروم عن طريقها^(٢)، وكان ذلك سبباً كافياً لكي تصبح دمياط هدفاً لغارات البيزنطيين في العصر الأموي ، فضلاً عن قربها من أراضي الدولة البيزنطية . واتسع نشاط قاعدة دمياط في العصر العباسي ، وبرزت أهميتها بعد استيلاء الأندلسيين على كريت التي أصبحت تابعة لمصر في التقسيم الإداري ، ووقع عبء إمدادها بالعتاد والسلاح على دمياط مما يسر على مسلمي كريت تهديد الدولة البيزنطية ، ففطن البيزنطيون إلى ما تمثله دمياط بالنسبة لكريت فشنوا عليها غارتهم - موضوع هذا البحث - في ٢٣٨ هـ / ٨٥٣ م^(٣).

ب - أحداث الهجوم :

في صباح التاسع من ذى الحجة سنة ٢٣٨ هـ (٢٢ مايو ٨٥٣ م)، كان المسلمون في مصر يستعدون للاحتفال بوقفة عيد الأضحى المبارك وقد غشيم الفرح والابتهاج . وكأنما أراد والى مصر آنذاك ، وهو عنيسة بن اسحق الضبي ، أن يشارك المصريين فرحهم وابتهاجهم بهذه المناسبة العظيمة فقرر الاحتفال أيضاً بختن ولديه في هذا اليوم المبارك ، وأعد العدة لاحتفال كبير بالفسطاط ، حاضرة البلاد ، واستدعى جميع من كانوا في حاميات الثغور البحرية بدمياط وتنبس والإسكندرية من جند وجرخية وزراقين^(٤)، على غير المألوف في ذلك الوقت من العام . إذ كانت

(١) صفاء حافظ أحمد عبد الفتاح ، الثغور المصرية ، ص ٣٢ ؛ جمال الدين الشيال ، تاريخ دمياط ، ص ٦٦ . وانظر أيضاً الخريطة الملحقة بالبحث .

(٢) إبراهيم العدوي ، الأساطيل العربية في البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١٣٨

(٣) السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية ، ج ١ ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٤) الجرخ نوع من القوس الرامى الذى ترمى عنه النشاب أو النفط ، وهى كلمة مأخوذة عن الفارسية ، والجرخى الذى يرمى عن قوسه السهام أو النفط أى الرامى ، انظر : البدراوى زهران ، فى علم اللغة

الحاميات المرابطة فى الثغور البحرية لا تترك مواقعها فى فصلى الربيع والصيف ، تحسباً لهجمات الروم^(١).

ولكن عنبسة أراد فيما يبدو أن يظهر الدولة فى كامل زينتها فى هذا اليوم العظيم وأن يقيم عرضاً عسكرياً لم تشهد له البلاد مثيلاً^(٢) . غير أن الصورة كانت مختلفة فى مياه البحر المتوسط شمالي البلاد . فبعيداً عن ضجيج الاحتفالات ومظاهر البهجة والسرور التى كانت تعم العاصمة ، كانت ثلاثمائة سفينة من الشلنديات^(٣) البيزنطية تمخر عباب البحر فى هدوء تام وسرية كاملة تحت قيادة ثلاثة من قادة البحرية البيزنطية ، فيتقدم نحو ثلث هذه القوة البحرية جنوباً ليجتاز مدخل بحيرة تنيس ويظهر فجأة أمام سواحل دمياط العارية من رباطها بينما يتجه الثلثان الآخران إلى جهة أخرى حددت لهما بعيداً عن السواحل المصرية^(٤)

التاريخي، دراسة تطبيقية على عربية العصور الوسطى ، دار المعارف ، ١٩٧٩ ، ص ٧٨ .
والزراقون هم الرماة بالزراقات ، أى الأنابيب المستخدمة فى الرمى بالنفط ، انظر : المقرئى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ج ١ ، القسم الثانى ، ص ٤٩٨ .

^(١) انظر ما سبق ص ٢٠ - ٢١ .

^(٢) عن أسباب استدعاء حاميات الثغور إلى الفسطاط ، انظر : الطبرى ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٤ ، الذى يذكر أن السبب فى حضور الجنود إلى الفسطاط هو " لتحمل لهم فى العيد " وقرأ بعض المؤرخين هذه العبارة على هذا النحو " ليتجمل بهم " ، انظر : عليه عبد السميع الجنزوري ، هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية فى العصور الوسطى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩ ، ص ٧٥ ؛ جمال الدين الشيال ، تاريخ دمياط ؛ ص ١١ ، سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ ، ص ٩٠ .

^(٣) عرف ابن مماتي هذا النوع من السفن بأنه " مركب مسقف تقاثل الغزاة على ظهره، وجدافون يجدفون تحتهم . " انظر : ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ ؛ راجع أيضاً : درويش النخيلي ، السفن الإسلامية على حروف المعجم فى : تاريخ البحرية المصرية ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٣ ، ص ٧٩ .

^(٤) الطبرى ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٣ .

قيادة الأسطول البيزنطي :-

وقبل أن نخوض في وصف وقائع هذا الهجوم المباغت ، وننظر ما فعل الغزاة بالمدينة الآمنة ، يجدر بنا أن نتوقف عند أسماء قادة هذه الحملة ، ونتعرف عليهم . وقد كان تحديد أسماء هؤلاء القادة من المشكلات التي واجهت المؤرخين ، خاصة وأن الطبري هو المصدر الوحيد الذي ذكر هذه الأسماء ونقلها عنه المؤرخون اللاحقون فنجد عنده هذه العبارة : " وفي هذه السنة (٢٣٨ هـ) جاءت للروم ثلاثمائة مركب مع عرفا وابن قطونا وأمردناقة^(١)، بينما اكتفى اليعقوبي بذكر قائد واحد هو الذي هاجم دمياط هو (ابن قنوناريس) " ^(٢) ونظراً لانعدام المصادر البيزنطية التي كان يمكن أن تعرض لهذه المسألة ، وبعد المسافة الزمنية بين التاريخ الفعلي للهجوم (٨٥٣ م) وبداية الاهتمام بالدراسات البيزنطية في منتصف القرن السابع عشر^(٣)، فإنه لم يكن أمام المؤرخين الحديثين إلا الاجتهاد واستنتاج الأشكال المحتملة لأسماء قادة الحملة اعتماداً على الوقائع التاريخية ، والقرائن اللغوية التي توفرت لكل من هؤلاء المؤرخين . فاتفق المؤرخ الروسي فازيليف والمؤرخ الفرنسي هنري جريجوار على أن عرفا عند الطبري هو أمير البحر البيزنطي نيقيتاس أوريافاس ، وهو أحد قادة الأسطول البيزنطي ممن قادوا الحملات البحرية على كريت زمن ميخائيل الثاني وثيوفيلوس وكان من رجال البحرية المشهورين في عهد ميخائيل الثالث^(٤). كما اتفق فازيليف وجريجوار على أن ابن قطونا هو

^(١) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ص ١٩٣ .

^(٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ص ٤٨٨ .

^(٣) . (Vasiliev, Hist of Byz Empire, Vol. 1, p 4 .

والواقع أن الدراسات الجديدة عن تاريخ الإمبراطورية البيزنطية لم تظهر إلا منذ منتصف القرن التاسع

عشر . انظر : السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ص ٨ .

^(٤) (Gregoire, Etudes, pp 515-516 ؛ وانظر أيضاً : فازيليف ، العرب والروم ، ص ١٨٩ ،

حاشية ١ . وعن مجلس الوصاية على ميخائيل الثالث ، انظر : فازيليف ، العرب والروم ، ص ١٦٩ ، حاشية ٢

، حيث يحيل القارئ إلى مقالة له نشرت في مجلة (Byz) تحت عنوان " رجل عظيم مجهول " انظر :

Gregoire, Etudes, pp 515-526.

سرجيوس نفيثاتيس الذي كان وصياً على الإمبراطور ميخائيل الثالث^(١) واستند فازيليف في رأيه إلى تحريفه للاسم إلى ابن نقطونا حتى يتفق مع رأيه الذي ارتآه^(٢) واتفقا أيضاً على أن أمردناقة هو برداس خال الإمبراطور ميخائيل الثالث^(٣). أما المؤرخ الإنجليزي بيورى فقد ذهب إلى أن ابن قطونة هو فوتينوس أو كنتوميتيس وأن أمردناقة هو مرنيياكيوس^(٤) فأما فوتينوس فقد صادفنا هذا الاسم للقائد الذى أرسله الإمبراطور ميخائيل الثاني حاكماً لجزيرة كريت فى سنة ٨٢٨ ، ولكنه هزم أمام المسلمين وفر فى قارب^(٥) وكان قائداً لثيم الأناضول وأبا جد الإمبراطورة زوى والدة قسطنطين السابع^(٦). وأما كنتوميتيس ، فإننا لا نصادف هذا الاسم إلا فى واقعة إغارة مسلمي كريت على الساحل الآسيوي للإمبراطورية البيزنطية فى ٨٤١ م ، ونزولهم قرب ايفيسوس حيث تصدى لهم قسطنطين كنتوميتيس قائد ثيم تراقيا العسكري وقضى عليهم^(٧) وأما مرنيياكيوس فلا نعرف عنه شيئاً . وأخيراً ، فإن هناك رأياً يقول بأن ابن قطونا هو الخصى داميانوس الذى كان مشرفاً على غرفة النوم الإمبراطورية^(٨).

^(١) الطبرى ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٣ .

^(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ص ١٩٣ .

^(٣) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ص ٤٨٨ .

^(٤) Vasiliev, Hist of Byz Empire, Vol. 1, p 4

والواقع أن الدراسات الجديدة عن تاريخ الإمبراطورية البيزنطية لم تظهر إلا منذ منتصف القرن التاسع عشر . انظر : السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ص ٨ .

^(٥) Theophanes Continuatus, Historia, pp 79 – 81; Zonaras, Epitome, Cf Also : Gregoire, Etudes, p516Tome III, p 339;

^(٦) Gregoire, Etudes, pp 515-516 ؛ وانظر أيضاً : فازيليف ، العرب والروم ، ص ١٨٩ ، حاشية ١ . وعن مجلس الوصاية على ميخائيل الثالث ، انظر : فازيليف ، العرب والروم ، ص ١٦٩ ، حاشية ٢ ، حيث يحيل القارئ إلى مقالة له نشرت فى مجلة (Byz) تحت عنوان " رجل عظيم مجهول " انظر : Gregoire, Etudes, pp 515-526

^(٧) Brooks ,Crete, pp 438- 439; Brooks, The Struggle, p 131. – ٤

^(٨) انظر : ناجى محمد عبد القادر نوار ، العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والخلافة العباسية فى عهد الإمبراطور ميخائيل الثالث ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص ١٩٩ ، حاشية ١ .

ونخلص من هذا إلى أن هناك إجماعاً على أن المقصود بعرفا عند الطبري هو أمير البحر البيزنطي أوريثاس وأن الخلاف حول امردناقة انحصر في شخصين هما برداس (عند فازيليف وجريجوار) ومرنيناكيوس (عند بيورى) أما القائد الثالث والذي يعيننا في هذا البحث أكثر من غيره لأنه هو الذى قاد الهجوم على دمياط ، فقد كان محل خلاف شديد لم يحسم حتى الآن ، فهو سرجيوس نيقيتاتيس الوصى على الإمبراطور ميخائيل الثالث (عند فازيليف وجريجوار) وهو فوتينوس الذى أرسل حاكم لكريت وهزمه المسلمون أمامها وهرب فى قارب (عند بيورى) أو كنتوميتيس قائد ثيم تراقيا العسكري (عند بيورى أيضاً) وهو داميانوس المشرف على غرفة نوم الإمبراطور^(١)

ونحن لا نقلل من شأن اجتهادات أولئك المؤرخين الكبار ولكننا نرى أنه من غير الممكن التوصل إلى حسم هذه المسألة إلا إذا أخذت النقاط التالية فى الاعتبار :-

أولاً :- أن الطبري ، وهو المصدر الأساسى بل الوحيد لأسماء قادة الحملة الثلاثة ، ولد سنة ٢٢٤ هـ ، أى إنه كان فى الرابعة عشرة من عمره عند وقوع الهجوم البيزنطي على دمياط فى سنة ٢٣٨ هـ . ومن غير المعقول أن يكون قد بدأ كتابة مؤلفه الضخم فى هذه السن المبكرة . والسؤال الذى يفرض نفسه فى هذا المقام هو : ما هو المصدر الذى استقى منه الطبرى معلوماته عن الهجوم البيزنطي ، وأسماء القادة الذين تولوا قيادته ؟ للأسف الشديد ، يبدو أن هذا السؤال سيبقى بغير إجابة . فعلى الرغم من أن أسلوب الطبري فى التدوين التاريخي كان يعتمد على التعويل على الروايات والحرص على السند فإنه قد تساهل فى هذا السند ، فى الجزء التاسع من مؤلفه^(٢)

^(١) ناجى محمد عبد القادر نوار ، ميخائيل الثالث ، ص ١٩٩ .

^(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٣ وما بعدها .

ثانياً :- أن فازيليف قد وقع فى خطأ تاريخي عندما ذهب إلى ان مؤرخي العرب نقلوا إلينا أسماء هؤلاء القادة دون نقط ^(١) فمن الثابت تاريخياً أن الحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠ - ٩٥ هـ) هو الذى أمر كتابه بنقط الحروف المتشابهة فى الرسم المختلفة فى الصوت ، وكان القرآن يكتب دون هذه النقط من قبل ^(٢) ومن المرجح أن اختلاف مكان هذه النقط فى روايات المؤرخين العرب ، أو اختفاءها هو من خطأ النساخ . وأيا كان السبب فى ذلك ، فإن النتيجة كانت واحدة وهى فتح الباب واسعاً أمام كل الاحتمالات عند التعامل مع هذه الأسماء .

ثالثاً :- أن اختلاف حروف الهجاء فى اللغتين اليونانية - وهى اللغة الرسمية للدولة البيزنطية فى ذلك الوقت - والعربية ، واختلاف أساليب رسم هذه الحروف ، وما قد يتبع ذلك من اختلاف فى الأصوات والنطق قد ينتهى بالكلمات إلى صور تبدو غريبة عن أصلها إلى حد بعيد كما أن الأخطاء فى السماع تؤدى إلى تشويه الصيغ ^(٣)

رابعاً :- أن الأسماء التى نحن بصددنا قد تعرضت لتغيرات عنيفة فى رسمها ، وبالتالي فى نطقها عند تعريبها على يد المؤرخين العرب لتلائم الخصائص الصوتية للغة العربية ثم لتغيرات لا تقل عنفاً عند (أغرقتها) أو (تلتينها) على يد المؤرخين من غير العرب لتلائم الخصائص الصوتية للغات المنحدرة من اللغة اللاتينية

خامساً :- أن المؤرخين الذين اجتهدوا فى إعادة هذه الأسماء المعربة على صورتها اليونانية كانوا يكتبون بلغات مختلفة كالروسية فى حالة فازيليف ، والفرنسية فى حالة جريجوار ، والإنجليزية فى حالة بيورى . ولا يخلو هذا الاختلاف فى الانتماء اللغوى من مغزى . وأيا كان الأمر فإن قائد الأسطول البيزنطي الذىهاجم دمياط سواء كان نيقيتاتيس الوصى على

^(١) فازيليف ، العرب والروم ، ص ١٨٩ ، حاشية ١ .

^(٢) صبجى الصالح ، مباحث فى علوم القرآن ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٩٤ .

^(٣) اليدرأوى زهران ، علم اللغة ، ص ص ٥٢ - ٥٤ .

ميخائيل الثالث ، أو فوتينوس الذى أرسل إلى كريت ليكون حاكماً لها ، أو كنتوميتيس قائد ثيم تراقيا العسكري ، أو حتى داميانوس المشرف على غرفة النوم الإمبراطورية، كان رجلاً عظيم الشأن فى قومه كما يظهر من كل هذه الاحتمالات ، وفى ذلك دليل لا يخفى على أهمية هذه الحملة فى نظر البيزنطيين وحرصهم على نجاحها فى مهمتها وإلا لما اختاروا لقيادتها قائداً مرموقاً ذا مكانة بغض النظر عن اسمه .

د - المشهد فى مدينة دمياط أثناء الهجوم :-

ونعود إلى المشهد فى مدينة دمياط . فهأى السفن البيزنطية تتقدم فى صمت نحو المدينة كالقدر الدايم . وهأهم جند الروم يتأهبون للنزول إلى الشاطئ مدججين بالسلاح ، وقد عقدوا العزم على الفتك بالمدينة ، والنأر لهزائمهم المتلاحقة أمام المسلمين فى السنوات السابقة . وينزل الجند إلى الشاطئ ، وتؤخذ المدينة على حين غرة ، وتفزع إلى جندها فلا تجد لهم أثراً ، وتتطلع إلى حامية تحميها أو رجال يذودون عنها ، فإذا الجميع فى الفسطاط يمرحون ! . ولا يجد أهل المدينة من النساء والأطفال والرجال ممن لا خبرة لهم بالقتال وفنون الحرب سبيلاً إلى النجاة إلا بالفرار ، فأما من كانت له سفن فقد كتبت له النجاة وفر بها إلى الفسطاط ، وأما من لم يكن له من ذلك شيء فقد كان من الهالكين ، وما كان أكثرهم فى ذلك اليوم ! فغرق فى البحيرة التى تفصل بين المدينة والبحر قوم كثير من نساء وصبيان ، رغم أن الماء فى هذه البحيرة كان يصل إلى صدر الرجل تقريباً^(١) وما خاضها الناس إلا فزعاً من الغزاة وأملاً فى النجاة .

فر الناس إذن ، وخلت المدينة أمام العدو يفعل بها ما يشاء ، ويحكى لنا الطبرى ما فعل الروم بالمدينة فيقول أنهم " أحرقوا ما وصلوا إليه من دورها وأخصاصها ، واحتملوا سلاحاً كان فيها أرادوا حمله إلى أبى حفص صاحب أقريطش نحواً من ألف قناة وآلتها ، وقتلوا

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ص ١١٧ .

من أمكنهم قتله من الرجال ، وأخذوا من الأمتعة والقند (حلوى تصنع بغلى سكر القصب أو تبخير ه) والكتان ما كان عبئ ليحمل إلى العراق ، وسبوا من المسلمات والقبليات نحواً من ستمائة امرأة ... فأوقروا سفنهم من المتاع والأموال والنساء، وأحرقوا خزانة القلوع وهى شرع السفن ، وأحرقوا مسجد الجامع بدمياط ، وأحرقوا الكنائس ... (١)

هـ - أهمية رواية الطبري لأحداث مشهد الهجوم :-

وتستمد رواية الطبري لأحداث ذلك اليوم أهميتها من عوامل متعددة نجملها فيما يلي :-

١ - أن رواية الطبري هي في رأينا الرواية الكاملة الوحيدة لوقائع الهجوم . ويكفى لى نتأكد من ذلك أن نستعرض تناول المؤرخين اللاحقين لأحداث الهجوم على دمياط ، والذين نقلوا عنه على الأرجح كل ما ورد فى أعمالهم عن هذا الهجوم مع الاختصار الشديد للرواية عند كثير منهم (٢)

(١) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٤ .

(٢) الكندى ، ولاة مصر ، ص ١٥٧ ؛ ابن المقفع ، بطاركة الإسكندرية ، ص ٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ص ١١٧ ؛ الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ، دول الإسلام ، عنى بطبعه ونشره عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، إدارة أحياء التراث الإسلامي ، دولة قطر ، ١٩٨٨م ، ص ١٤٤ ؛ أبو محمد عبد الله بن أسعد بن على الياقعي ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حوادث الزمان ، وضع حواشيه خليل المنصور ، منشورات محمد على بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، الجزء الثانى ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م ، ص ٩١ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ص ٥٨٧ ؛ المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤٠١ ؛ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، تحقيق إبراهيم على طرخان ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٥٥٤ ؛ محمد بن أحمد بن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، الجزء الأول ، القسم الأول ، ص ١٥٣ .

هذا عن المؤرخين اللاحقين على الطبري أما قبل الطبري (ت . ٣١٠ هـ) فإننا لا نعثر على أى رواية للهجوم على دمياط باستثناء رواية اليعقوبي ، انظر اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ص ٤٨٨ . ورغم أن اليعقوبي توفى قبل وفاة الطبري = بنحو خمسة وعشرين عاماً أى إنه كان أقرب زمنياً إلى الأحداث ، فإن أحداً من المؤرخين لم يأخذ بروايته ، فضلاً عن أنها جاءت أكثر اختصاراً من رواية الطبري ، وتضمنت احصائيات انفرد بها سواء من حيث عدد السفن المهاجمة ، فذكر أنها كانت خمسة وثمانين مركباً ، أو من حيث عدد السبائيا من أهل المدينة حيث قال أنهم " سبوا من المسلمات ألفاً وثمانمائة وعشرين امرأة ، من نساء القبط ألف امرأة ، ومن اليهود مائة امرأة ، وهى أعداد نرى أنها

٢- أن تقادم العهد بالحدث الذى يؤرخ له المؤرخ قد يفقد الحدث بريقه الأول ، بل والأخطر من ذلك إنه قد يجرده من أهم عناصره فيفرغه بذلك من مضمونه الأساسي . وليس من الصعب على المنتبع لقصة الهجوم البيزنطي على دمياط عند المؤرخين العرب بين أوائل القرن الرابع الهجري ومنتصف القرن العاشر أن يلاحظ أن الصورة المؤثرة التى رسمها لنا الطبرى فى النصف الثانى من القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع الهجري بمفردات صارخة تمثل كل منها جريمة حرب بمصطلحات العصر الحديث كما يظهر من النص الذى أوردناه فى الفقرة السابقة (١) قد تحولت عند ابن إياس فى القرن العاشر الهجرى إلى صورة باهتة نرى فيها الروم وقد نهبوا المدينة وقتلوا جماعة من أهلها وسبوا النساء (٢) . وباستثناء ابن الأثير الذى يقدم لنا رواية تقترب كثيراً فى تفاصيلها ومفرداتها من رواية الطبرى (٣) ، فإن مؤرخى القرن الرابع الهجرى (الكندى المتوفى فى ٣٥٠ هـ ، وساويرس بن المقفع المتوفى فى ٣٧٦ هـ / ٣٧٧ هـ) ، والقرن الثامن الهجرى (الذهبى المتوفى فى ٧٤٨ هـ ، واليافعى المتوفى فى ٧٦٨ هـ) ، والقرن التاسع الهجرى (ابن خلدون المتوفى فى ٨٠٨ هـ ، و المقرئى المتوفى فى ٨٤٥ هـ ، وابن تغرى بردى المتوفى فى ٨٧٤ هـ) ، والقرن العاشر الهجرى (السيوطى المتوفى فى ٩١١ هـ ، وابن إياس المتوفى فى ٩٣٠ هـ) يقدمون لنا رواية لما فعل الجنود البيزنطيون بالمدينة تكاد تكون رواية نمطية تراوحت مفرداتها بين " نهبوا : و "أحرقوا" و "سبوا" و "قتلوا" دون أن يعتنوا بترتيب سرد هذه الأفعال على النحو الذى نجده عند الطبرى . والأخطر من ذلك أن كل هؤلاء المؤرخين الأجلاء أغفلوا سهواً

مبالغ فيها خاصة وأن التركيبة السكانية للمدينة كان يغلب عليها الأقباط حتى القرن العاشر الميلادى وما بعده كما سبقت الإشارة إلى ذلك. انظر ما سبق ص ٢٠

١ - انظر ص ص ٢٦ - ٢٧ من هذا البحث .

٢ - ابن إياس ، بدائع الزهور ، ص ١٥٣ .

٣ - ابن الأثير ، الكامل ، ص ١١٧ .

أو اختصاراً ، واقعتين من أهم وقائع الهجوم بل هما فى رأينا أهم وقائعه على الإطلاق ، وهما الاستيلاء على الأسلحة التى كانت معدة لإرسالها إلى كريت ، وإحراق خزانة القلوع . وفى رأينا ، أن هذا السهو أو الاختصار يفرغ الواقعة من مضمونها ويجرد الهجوم البيزنطي من أهم أهدافه التكتيكية ، الأمر الذى يزيد من أهمية رواية الطبري باعتبارها محاولة أمينة لرصد الواقع التاريخي لواحد من أهم الثغور البحرية للدولة الإسلامية فى القرن الثالث الهجري .

٣ - إن تحليل رواية الطبري لوقائع الهجوم فى ضوء أهدافه الاستراتيجية والتكتيكية^(١) يعزز من قيمة هذه الرواية ويزيد من مصداقيتها . فرغم أن الطبرى لا يذكر لنا شيئاً عن وجهة الأسطولين الآخرين اللذين كانا تحت إمرة عرفا (أوريغاس)^(٢) وأمردناقة (برداس أو مريناكيوس)^(٣) أو مصيرهما ، فإن إشارته إلى عدد السفن وتحديد عددها بثلاثمائة مركب ثم تقسيمها - تلميحاً - إلى ثلاث مجموعات أو أساطيل على رأس كل منها واحد من " رؤساء " البحر ، ثم ذكر أسماء هؤلاء الرؤساء تفصيلاً ، كل ذلك إنما يشير إشارة واضحة إلى وجود هدف استراتيجي كبير تحركت فى إطاره هذه الأساطيل الثلاثة ، وأهداف تكتيكية جرى تحقيقها داخل دمياط . أما الهدف الاستراتيجي الكبير والذى تمثل فى القضاء على التهديد الإسلامي للوجود البيزنطي فى البحر المتوسط ، فربما اقتضى من البيزنطيين توجيه ثلاثة أساطيل ينفذ كل منها جزءاً من خطة عامة لتحقيق هذا الهدف ، فيتجه الأسطول الأول إلى كريت فى محاولة بيزنطية جديدة لاستردادها باعتبارها المصدر المباشر لتهديد السواحل والممتلكات البيزنطية^(١) . ويقوم الأسطول الثانى تحت قيادة من أسماه الطبري (ابن

^(١) انظر ما سبق ، ص ١٧ - ١٨ من هذا البحث .

^(٢) انظر ص ٢٤ من هذا البحث .

^(٣) انظر ما سبق ، ص ٢٤ - ٢٥ من هذا البحث .

١ - يؤيد فازيليف هذا الرأى . انظر : فازيليف ، العرب والروم ، ص ١٩١ ؛ على محمد فهمى ، البحرية الإسلامية ، ص ٣١٨ .

قطونا) (٢) بمهاجمة دمياط لتحقيق هدفين تكتيكيين هما قطع خطوط الإمداد بالسلاح عن مسلمي كريت بالاستيلاء على السلاح الذي كان قد أعد فى دمياط لإرساله إليهم ، ومعاقبة أو إرهاب هذه المدينة التى كانت قد أصبحت بمثابة دار صناعة لمسلمي كريت . وربما كان القول بأن الأسطول الثاني هو الذى هاجم دمياط (٣) راجعاً إلى ورود اسم ابن قطونا كثاني اسم من بين أسماء قادة الأساطيل الثلاثة عند الطبري (٤) . أما الأسطول الثالث فإننا نرجح أن يكون قد اتجه إلى صقلية (٥) بهدف التخفيف من ضغط المسلمين على القوات البيزنطية بها ، خاصة وأن القوات الإسلامية كانت قد حققت انتصارات متتالية واستولت على عدد كبير من المدن والمواقع فى صقلية منذ نزول أسد بن الفرات الجزيرة فى سنة ٨٢٧ م / ٢١٢ هـ . ومع تولى عباس بن الفضل بن جعفر (٨٥١ - ٨٦١ م) ، قيادة القوات الإسلامية فى صقلية خلفاً لأبيه الفضل بن جعفر (٨٤٥ - ٨٥١ م) زادت وتيرة الفتوحات الإسلامية فى صقلية (١) .

وأما الأهداف التكتيكية للهجوم على دمياط والتي انفرد بذكرها الطبري ، ولم يشر إليها بعده إلا ابن الأثير كما سبق القول فهى الاستيلاء على الأسلحة المعدة لإرسالها إلى مسلمي كريت وتدمير مخزن القلوع بالمدينة ، ويمكن أن نضيف إلى هذه الأسباب إرهاب المدينة وترويع أهلها

٢ - انظر ما سبق ، ص ٢٤ - ٢٥ من هذا البحث .

٣ - فازيليف ، العرب والروم ، ص ١٨٩ .

٤ - الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٣ .

٥ - يذكر بيورى أن الأسطولين الآخرين قد ذهبا إلى صقلية عندما وجدا أن قوات زميلهم (المتجهة إلى دمياط) كافية لتنفيذ خطته . انظر : Bury, E. R. E. p. 292 ؛ انظر أيضاً : على فهمى ، البحرية الإسلامية ، ص ٣١٨ ، ولكننا نستبعد أن تتجه مائتا سفينة إلى صقلية وحدها أو إلى كريت وحدها لمجرد أنها لا تجد ما تفعله فى دمياط . فليس من المقبول منطقياً أن تخرج ثلاثمائة سفينة محملة بالأسلحة والجنود تحت قيادة ثلاثة من كبار القادة البحريين لمهاجمة مدينة صغيرة عارية من دفاعاتها ثم تكتشف أن لا حاجة إليها فتبحر مائتان منها إلى جهات أخرى دون خطة استراتيجية واضحة .

١ - انظر ما سبق ، ص ١٦ من هذا البحث .

على سبيل التأديب أو العقاب وردعها عن مواصلة دعمها للمسلمين فى كريت .

ونخلص من ذلك على أن ما جرى فى دمياط فى ذلك اليوم لم يكن مقطوع الصلة بما كان يجرى فى البحر المتوسط ، ولم يتم بمعزل عن الأهداف الاستراتيجية للدولة البيزنطية . كما إنه لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا ما يمكن أن تفعله قوة من الجند تغير على موقع لا يجد من يدفع عنه الأذى ، فالجند هم الجند فى كل زمان ومكان . والمهمة الوحيدة التى يكلف بها الجندى فى الحرب أو فى الإغارة هى تدمير العدو ، والقضاء على تهديده لسلامة الوطن . ولم يخرج الجنود البيزنطيون الذين هاجموا دمياط على هذه القاعدة ، فأحرقوا البيوت والجامع الكبير والكنائس ، وقتلوا من أمكنهم قتله ، واسروا ونهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم ؛ حتى أنقلوا سفنهم بالغنائم والسبايا . أما استيلاؤهم على الأسلحة الموجهة إلى كريت وإحراقهم للخزانة المقدسة بالقلوع فلا نظن أن ذلك تم بنفس الطريقة العشوائية التى اعتدوا بها على أهل المدينة وممتلكاتهم ، بل كان ذلك جزءاً من تدبير متفق عليه أو أوامر محددة صدرت إليهم من قادتهم .

الدفاع عن مدينة دمياط عام ٨٥٣ م ، فى المصادر

العربية

على هذا النحو إذن سارت الأحداث فى دمياط فهل يفهم من ذلك أنه لم يكن هناك أى نوع من المقاومة ؟ وأن الأمر اقتصر على هجوم من جانب الجنود ، وفرار مذعور من جانب الأهالي أعقبه إحراق وقتل ونهب وسبي بلا أى رادع ؟

الواقع أن تتبع تناول هذه المسألة فى أعمال المؤرخين ينتهى بنا إلى تقسيم هؤلاء المؤرخين إلى أربع مجموعات لكل منها موقفها الخاص من المسألة . فالمجموعة الأولى وعلى رأسها مؤرخنا الطبري وحجتنا فى

هذا البحث ، وتشمل من بعده ابن الأثير فى القرن السابع الهجري ، وابن تغرى بردى فى القرن التاسع ، تؤكد لنا بشكل صريح لا لبس فيه حدوث المقاومة . فيحكى الطبري وابن الأثير أن ابن الأكتشف كان محبوساً فى سجن دمياط بناء على أمر عنبسة والى مصر فكسر قيده وخرج لمقاتلة الروم وأعانه قوم فقتل من الروم جماعة (١) .

وعلى الرغم من الغموض الذى يحيط بشخصية ابن الأكتشف هذا ، فإننا نستشف من الطريقة التى يتحدث بها الطبري وابن الأثير عن هذا الرجل أنه كان شخصية معروفة وربما كان يشغل قبل حبسه بناء على أوامر عنبسة وظيفة مرموقة . فحين يقول " .

وذكر أن ابن الأكتشف كان محبوساً " دون أى إشارة إلى هويته أو وظيفته فإنه يفترض سلفاً أن القارئ يعرف هذا الرجل تماماً وأنه فى غير حاجة إلى التعريف به(٢) . ومما يؤيد افتراضنا هذا ما أضافه ابن تغرى بردى عندما ذكر أن عنبسة غضب على مقدم من أهل دمياط يقال له أبو جعفر بن الأكتشف فمضى إليه بعض أعوانه وكسروا قيده "(٣) . وأيا كان الأمر، فإن المستفاد من روايات الطبري وابن الأثير وابن تغرى بردى أن هذا الرجل كان يشغل وظيفة عسكرية متقدمة ، وأنه كان له أعوان ، والأعوان لا يكونون لشخص نكرة لا وزن له .

وفى غيبه الحامية الرسمية للمدينة ، أى الجند المكفون بحراستها ، وإزاء قسوة الغزاة ، كان لابد من ظهور المقاومة الشعبية فظهرت ، وكان

(١) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١١٧ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ص ١١٧ . ولم يكن الطبرى فقط الذى أشار إلى أهمية رتبة (الأكتشف) العسكرية ، حيث يذكر أن المقدم رتبة عسكرية كانت معروفة فى العصر العباسى ؛ فقد أيد المقرئى ذلك أيضاً ، ثم أضاف بأن مقدم الأسطول فى العصر الفاطمى كان يشترط أن يكون من أعيان أمراء الدولة ؛ انظر : المقرئى ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م ، الطبعة الثانية ، الجزء الثالث ، ص ٣١١ .

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ص ٢٩٤

لابد من قائد يوجه هذه المقاومة فأخرج الناس هذا الرجل الذي يستشف من رتبته أن له خبرة عسكرية واسعة ، وقدرة على مقاتلة الأعداء ، وإلا لما قتل من الروم جماعة على حد تعبير الطبري وابن الأثير ، ولما اجتمع إليه جماعة من أهل البلد فحارب بهم الروم حتى هزمهم وأخرجهم من دمياط ، ونزحوا عنها مهزومين في رواية ابن تغرى بردى (١).

أما المجموعة الثانية من المؤرخين وتشمل الكندي في القرن الرابع ، والمقريزي وابن تغرى بردى في القرن التاسع ، وابن إياس في القرن العاشر فتصور لنا الموقف الرسمي لعنيسة بن اسحق والى مصر والمسئول عنها في ذلك الوقت . ويتلخص هذا الموقف في أن عنيسة نفر إلى الروم فور علمه بما فعلوا ونفر كثير من الناس معه بل خرج عسكر الفسطاط قاطبة ، ولكن عنيسة لم يدرك الروم إذ جاء دمياط بعد أن خرجوا منها إلى تنيس (٢)

إذن ، فقد نفر عنيسة إلى الروم ولكنه لم يدركهم وعلى حين يذكر الكندي والمقريزي أنه لم يتبعهم (بعد خروجهم من دمياط إلى تنيس) ، ويذكر ابن تغرى بردى إنه لم يدركهم ، انفرد ابن إياس برواية سنتناولها في موضع لاحق عند الحديث عن المجموعة الثالثة من المؤرخين الذين تناولوا أحداث الهجوم . أما عدم مواصلة عنيسة السير من دمياط إلى تنيس لمطاردة الروم ، فقد اتخذ ذريعة للطعن في الرجل واتهامه بالتقاعس من قبل رجل يدعى يحيى بن الفضل لا نعرف عنه شيئاً إلا أنه قال في أبيات وجهها إلى الخليفة العباسي جعفر المتوكل وأوردها الكندي والمقريزي :

**أترضى بأن يوطأ حريمك عنوة وأن يستباح المسلمون ويحربوا
حمار أتى دمياط والروم وثب بتنيس رأى العين منه وأقرب**

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ص ٢٩٤ .

(٢) الكندي ، ولاة مصر ، ص ١٥٧ ، المقريزي ، المواعظ ، ج ١ ، ص ٤٠١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ص ٢٩٤ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ص ١٥٣ .

مقيمون بالأشثوم ييغون مثل ما أصابوه من دمياط والحرب ترتب
فلا تنسنا إنا بدار مضيعة بمصر وإن الدين قد كاد يذهب^(١)

وزاد المقریزی قبل البيت الأخير بيتاً آخر هو :

فما رام من دمياط شبراً ولا درى من العجز ما يأتي وما يتجنب^(٢)

والواقع أن اتهام عنبسة بن اسحاق بالتقاعس عن ملاحقة الروم يحتاج إلى وقفة نستجلى فيها حقيقة الأمر ونتأكد فيها من صدق رواية هذا الشاعر . ويلاحظ أن كلاً من الكندي والمقریزی لم يطعنا في الرجل كما فعل ابن الفضل بل ذكرا - أو ذكر الكندي ونقل عنه المقریزی - في حياذ المؤرخين الأمناء أن المسلمين " لم يدركوهم " (أى الروم) وأن عنبسة " لم يتبعهم " ، بل إن إيراد أبيات ابن الفضل الشعرية يقوم في حد ذاته دليلاً على أمانة الرواية، فقد أورد المؤرخان الحدث وأورد تعليق الشاعر على الحدث دون أن يتدخلا بتأييد التهمة (التقاعس) أو إنكارها .

وقبل أن نسلم بصحة هذه التهمة في حق عنبسة ننفیها عنه ، يتعين علينا أن نتوقف عند جملة أمور أحاطت بموقف عنبسة ولم يسبق أن طرحت - بقدر ما نعرف - على بساط البحث .

أولاً :- كان عنبسة حاكماً عادلاً ورعاً أظهر من الرفق والعدل بالرعية والإحسان إليهم ما لم يسمع بمثله في زمانه . وكان يتوجه إلى المسجد الجامع ماشياً ، وكان ينادى في شهر رمضان بالسحور^(١) . فلا يستقيم مع هذه السمات في شخصية الرجل أن يتهم بالتكؤ والقعود عن نصره المسلمين ، وهو الحريص عليهم الساهر على مصالحهم .

^(١) الكندي ، ولاة مصر ، ص ١٥٧ .

^(٢) المقریزی ، المواعظ ، ج ١ ، ص ٤٠١ .

١ - الكندي ، ولاة مصر ، ص ١٥٧ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، ص ٢٩٤ .

ثانياً :- إنه نفر من الفسطاط فور علمه بالهجوم وأسرع إلى دمياط لملاقاة الروم . فهو قد تصرف كقائد مسئول عن دولة يدرك تماماً أن أول واجبات منصبه الذود عن حياض الإسلام، وصد أي عدوان يقع على الأراضي التي تدخل في نطاق مسؤوليته . ولذلك دلالاته في دحض تهمة التقاعس عنه فإذا كان يريد التقاعس فلم ينادى بالنفير العام ويسرع إلى دمياط على بعدها عن الفسطاط مسيرة أربعة أيام كما ذكر الطبري؟^(٢) .

ولا شك في أن عنبسة ، بداية ، قد ارتكب خطأ تكتيكياً خطيراً باستدعائه كل من كان بحامية دمياط إلى الفسطاط للمشاركة في الاحتفال بعيد الأضحى وختان ولديه كما تقدم^(٣) أما عدم ملاحظته للروم - على حد رواية الكندي والمقریزی - فربما كان له ما يبرره . فالطبري يحكى لنا أن المسافة بين دمياط والفسطاط كانت مسيرة أربعة أيام وإن كان ذلك يرد في سياق الحديث عن هروب من استطاع بالسفن إلى الفسطاط ، الأمر الذي يوحى بأن الطبري قصد بذلك مسير السفن في البحر ، بينما نعرف من الكندي أن عنبسة نفر " في جيشه " ^(١) ، ولا شك أن زحف الجيوش البرية يختلف عن مسير السفن في البحر (أو في النيل في حالتنا هذه) ، وإذا كان الروم قد أمضوا في دمياط و تنيس يومين وليلتين كما ذكر اليعقوبي^(٢) ، أو ثلاثة أيام كما ورد في تاريخ البطارقة لساويرس بن المقفع^(٣) ، فقد كان من الصعب إن لم يكن من المستحيل على عنبسة أن يدرك الروم في دمياط حتى لو علم بالهجوم فور وقوعه غير أنه من الواضح أن الخبر وصله بسرعة^(٤)، وأنه أيضاً تحرك على الفور، فهو لم

٢ - الطبري ، تاريخ الرسل ج ٩ ، ص ١٩٤ .

٣ - انظر ما سبق ص ٢١ - ٢٢ من هذا البحث .

^(١) الكندي ، ولاة مصر ، ص ١٥٧ .

^(٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ص ٤٨٨ . وانظر أيضاً الخريطة المرفقة بآخر هذا البحث .

^(٣) ابن المقفع ، بطارقة الإسكندرية ، ج ٢ ، ص ٨ .

^(٤) ذكر ابن إياس أن الخبر جاء عنبسة يوم عيد النحر . انظر : ابن إياس ، بدائع الزهور ، ص ١٥٣ .

يقصر ولم يتقاعس في الاستجابة ولكن عاملي الزمان والمسافة كانا في صف البيزنطيين.

وقد يكون ما منع عنبسة عن مطاردة البيزنطيين راجعاً إلى تأكده من انهم سيرحلون بعد أن حققوا أهدافهم . فهم لم يأتوا إلى دمياط بغرض احتلالها ولو انهم أرادوا ذلك لأعدوا للأمر عدته وما أسرعوا بمغادرة دمياط سواء تحت ضغط المقاومة التي تزعمها ابن الأكشف ، أو لمجرد الإغارة على تنيس وتخريبها . وبالنظر إلى أنهم قد حققوا أهدافهم فعلاً واتجهوا إلى البحر عائدين إلى بلادهم ، فإن قعود عنبسة عن مطاردتهم كان فيه حقن لدماء المسلمين ومحافظة على أرواحهم . يضاف إلى ذلك أن عنبسة كان يعرف بلا شك الطبيعة الجغرافية لتنيس ، ويعرف أن سفن البيزنطيين ستوحل في البحيرة إن حاولت دخولها فترجع عنها ، وهو ما حدث إذ لم يجد البيزنطيون ما يفعلونه في تنيس فانتقلوا إلى أشتوم تنيس ، وهو مرسى بينه وبين تنيس أربعة فراسخ ، كما يروى الطبري ، فخرّبوه وأحرقوا ما فيه من المجانيق والعرادات وأخذوا بابيه الحديد فحملوهما وعادوا إلى بلادهم ^(١) . ونخلص من ذلك إلى ان عنبسة لم يقعد عن مطاردة البيزنطيين ضعفاً منه - وقد نفر معه كثير من الناس - أو تقاعساً عن واجبه ، وهو الحريص على مصالح المسلمين ، وإنما إيماناً منه بعدم جدوى ملاحقة البيزنطيين .

ومن الأمور الأخرى التي ينبغي وضعها في الاعتبار عند استعراض موقف عنبسة أن الهجوم عليه ، والطعن في همته جاء من رجل غير راض عنه ، أو ناقم عليه لأسباب لم يفصح عنها الكندي والمقريزي اللذان انفردا بإيراد أبيات يحيى بن الفضل . فقد سبق أن هجا هذا الشاعر عنبسة في أبيات اتهمه فيها بأنه من الخوارج . وهي أبيات انفرد بذكرها الكندي قال فيها (يخاطب المتوكل) :-

^(١) الطبري ، تاريخ الرسل ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .

من فتي يبلغ الإمام كتابا عربياً ويقتضيه الجوابا
بئس والله ما صنعت إلينا حين وليتنا أميراً مصابا
خارجياً يدين بالسيف فينا ويرى قتلنا جميعاً صوابا
مر يمشى إلى الصلاة نهاراً وينادي السحور ظل وخابا^(١)

فهو هنا يشكو إلى الخليفة من هذا الوالى المصاب (فى دينه) ، ويذكره بأن هذا هو أسوأ ما فعله بهم إذ جعل أمرهم فى يد هذا الرجل الخارجى الذى يريد قتل الناس أجمعين ، ويسخر من مشيه إلى الصلاة فى غير موكب وبغير مطية ومن إيقاظه الناس للسحور . والواقع أننا نجعل تماماً دوافع هذا الشاعر لمهاجمة عنبسة والسخرية منه والطعن حتى فى تدينه وتواضعه ، ولا نعرف شخصاً آخر هاجم عنبسة بهذا العنف باستثناء ساويرس بن المقفع الذى هاجمه بشدة لتضييقه على الأقباط ومنعه لدق الناقوس للصلاة وصنع النبيذ ، وهى تهم ذات طابع دينى يمكن القول بأنها كانت تمثل سياسة المتوكل لا سياسة عنبسة^(١) . ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن هجاء يحيى بن الفضل لعنيسة يوحى بموقف شخصى منه وبأن روايته للأحداث غير أمينة فلا يمكن إذن الأخذ بها على علاتها .

وننتقل إلى المجموعة الثالثة من المؤرخين الذين وصفوا لنا وقائع هذا الهجوم ، وهى ليست مجموعة بالمعنى الحرفى للكلمة ، حيث لا تشمل إلا مؤرخاً واحداً من القرن العاشر الهجرى هو محمد بن أحمد بن إياس الذى يطالعنا برواية مؤثرة انفرد بها ، حيث ذكر أن عسكر الفسطاط قاطبة قد خرجوا وتوجهوا إلى دمياط ، وحاربوا البيزنطيين وانتصروا عليهم وأسروا منهم جماعة وهرب الباقون إلى بلادهم . ويريد لنا ابن إياس أن نعيش أجواء الانتصار هذه ، فيذكر أن الأمير عنبسة عاد إلى الفسطاط

^(١) الكندي ، ولاة مصر ، ص ١٥٧ .

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١١٩ .

منصوراً وأمامه الأسرى من البيزنطيين " وكان يوماً مشهوداً " (٢) . فهل كان التاريخ عند ابن إياس مجرد حافز لإثارة الهمم من قبيل الفخر والزهو بالنصر على الأعداء ؟ من الواضح - قياساً على ما سبق وعلى ما هو ثابت من أمر هذه الغارة البيزنطية - أن هذه الرواية تتطوي على قدر كبير من المبالغة فلا جند عنبسة حاربوا البيزنطيين ولا هم انتصروا عليهم . كما أننا لا نسمع من أى مصدر أو مرجع عن أسرى بيزنطيين يساقون إلى الفسطاط أمام عنبسة . ونحن نرى أن رواية ابن إياس هذه تعكس روحاً وطنية متأججة فى صدر هذا المؤرخ أكثر مما تعكس حقائق التاريخ . وإذا أخذنا بما ذكره محقق الكتاب فى مقدمته من إنه كان يتوخى الأمانة العلمية فيما ينقله من أخبار وحوادث عن المؤرخين الذين سبقوه (١) فإنه لا يبقى أمامنا إلا أن نتهم المصدر الذى استقى منه ابن إياس روايته ، أو أن نرجع ما شاب هذه الرواية من مبالغة واضحة إلى تقادم العهد بالحدث .

وأخيراً ، فلو أننا سلمنا بأن التبعة فى هذه الرواية المغلوطة تقع على المصدر الذى نقل عنه ابن إياس فإن ما ينضح به حديث هذا المصدر من تفاخر وزهو بالانتصار المزعوم لا بد قد صادف هوى فى نفس ابن إياس الذى يتغنى فى مقدمة كتابه بمحاسن مصر وفضائلها وما قيل فى وصف نيلها ومفترجاتها وأوان ربيعها ، ويفتخر بما ورد فيها من القرآن الكريم والحديث الشريف ، ومن دخلها من الأنبياء و الصحابة والتابعين (a) ، الأمر الذى شجعه على الأخذ بهذه الرواية و نقلها كما هى لما تضمنته من الانتصار على الأعداء الذين أغاروا عليها .

ونصل أخيراً إلى المجموعة الرابعة وتضم عدداً من أساطين المؤرخين هم على سبيل الحصر وبترتيب قريبهم من الحدث : اليعقوبي، وساويرس ابن المقفع ،والذهبي والياضي ،وابن خلدون ، والسيوطي .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ص ١٥٣ .

(١) ومن المعروف أن ابن إياس قد ولد بالقاهرة فى عام ٨٥٢ هـ ، وتوفى بها فى ٩٣٠ هـ . أنظر :

ابن إياس ، بدائع الزهور ، ص ٨ .

واللافت للنظر أن رواية الحدث عند كل هؤلاء قد خلت تماماً من أي إشارة إلى رد فعل على المستويين الشعبي والرسمي إزاء الهجوم البيزنطي ، بل لم تزد عن سطر أو سطرين (ساويرس ، والذهبي ، والياضي ، والسيوطي) أو أربعة أسطر على الأكثر (اليعقوبي ، وابن خلدون) .

وإذا جاز لنا أن نفترض أن هذا التجاهل لذلك الجانب من قصة الهجوم يرجع إلى تقادم العهد بالحدث - كما سبق أن أشرنا إلى ذلك^(١) - بالنسبة للذهبي والسيوطي والياضي . وإلى الهوى الشخصي وغلبة الشعور الديني بالنسبة لساويرس بن المقفع الذي جاء حديثه عن الغزو في معرض الذم في الوالي عنبسة لأسباب دينية ، فإن من المستغرب أن يتجاهل اليعقوبي وهو أقرب المؤرخين عهداً بالهجوم - حيث توفي في سنة ٢٨٤ هـ ، الرد الشعبي والرسمي على هذا الهجوم . ولسنا نجد فيما بين أيدينا من المصادر والمراجع ما يبرر هذا السكوت من جانب اليعقوبي .

ومهما يكن الأمر ، فإنه ومن خلال تتبعنا لروايات المؤرخين العرب لمظاهر مقاومة الهجوم البيزنطي على دمياط عام ٨٥٣ م ، يمكن القول بأنه من المؤكد إنه كانت هناك مقاومة فعلية بدأت بمقاتلة ابن الأكتف للبيزنطيين ثم تطورت بقدوم عنبسة من الفسطاط بجيشه لملاقاة المعتدين على النحو الذي عرضنا له سلفاً .

نتائج الهجوم البيزنطي على دمياط عام ٨٥٣ م .

أما عن نتائج هذا الهجوم ، فقد وصف المؤرخ استروجورسكي حملة دمياط بأنها كانت مجرد مظاهرة عسكرية لم تحقق الأهداف المرجوة منها ، غير أنها وجهت انتباه المصريين لضرورة بناء أسطول قوى قادر على مواجهة مثل هذه الهجمات المفاجئة ، وكان هذا الأسطول الجديد هو

^(١) انظر ما سبق ، ص ٢٧ من هذا البحث .

نواة القوة البحرية المصرية الهائلة زمن الخلفاء الفاطميين^(١) . وللإنصاف ، فإن الرجل قد جمع في هذه العبارة الموجزة أهم نتيجتين تمخض عنهما هذا الهجوم الذى أخذ المدينة على حين غرة من أهلها ، وهما إخفاق البيزنطيين فى القضاء على التهديد الإسلامى للسواحل والممتلكات البيزنطية فى البحر المتوسط ، وتنبية المسلمين إلى ضرورة بناء أسطول قوى قادر على مواجهة الهجمات المفاجئة .

أما إخفاق البيزنطيين فى القضاء على تهديد المسلمين لأراضيهم سواء بالإغارة عليها انطلاقاً من كريت أو التوسع فى فتوحاتهم فى جزيرة صقلية ، فليس أدل عليه من استمرار غارات مسلمي كريت على السواحل والجزر البيزنطية من جهة ، واطراد الزحف الإسلامى لاستكمال فتح جزيرة صقلية من جهة أخرى .

ففى سنة ٨٦٠ م ، انتهز مسلمو كريت فرصة الهجوم الروسى على القسطنطينية ، فأغاروا على جزر السيكلاديز ، كما هاجموا شواطئ آسيا الصغرى وأخذوا الكثير من الغنائم والأسرى^(١) وفى سنة ٨٦٢ أغاروا على جزيرتى لسبوس وميتيلين واستولوا عليهما ، كما أغاروا على دير جبل آتوس^(٢) . وفى سنة ٨٦٦ م ، أغاروا على جزيرة نيون واتخذوا منها قاعدة لهم^(٣) . وفى سنة ٨٦٧ م ، شن المسلمون غارة كبيرة على الساحل الشرقى للبحر الإدرىاتيكي اشتركت فيها مع أسطول كريت بعض القطع الحربية من أساطيل قرطاجنة وصقلية وجنوب إيطاليا^(٤) .

(١) Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, Rutgers University Press, 1957, p 197 .

(٢) Theophanes Continuatus, Historia, p 196.

(٣) Theophanes Continuatus, Historia, p 197 . وانظر أيضاً : فازيليف ، العرب والروم ، ص ٢٢٦ .

(٤) Theophanes Continuatus, Historia, p 197.

(٥) Symeon Magister, Chronographia, p.694; Constantine Administrando, p. 130; Theophanes Continuatus, Historia, p 289

واستمرت الغارات البحرية التي وجهتها الأساطيل الإسلامية إلى الأراضي البيزنطية سواء من كريت وحدها أو بالتعاون مع أسطولها طوال عصر بازيل الأول (٨٦٦ - ٨٨٦ م)، وإن كان البيزنطيون قد حققوا انتصارات مهمة في هذه العمليات بفضل التقدم الكبير الذي شهدته البحرية البيزنطية في تلك الفترة (١) .

وجاءت أقوى ضربة وجهها مسلمو كريت إلى البيزنطيين في سنة ٩٠٤ م / ٢٩١ هـ، عندما أسهم أسطولهم مع الأسطول السوري والأسطول المصري تحت قيادة ليو الطرابلسي في الهجوم الساحق على سالونيك ، والذي حقق نجاحاً تجاوز كل التوقعات وبلغ عدد الأسرى من سكان هذه المدينة نحو ٢٢ ألف شخص (٢) . وفي سنة ٩١٠ م ، منى الأسطول الضخم الذي أرسله الإمبراطور ليو السادس لاسترداد كريت تحت قيادة هيميريوس بالهزيمة ، بعد أن حاصر الجزيرة لمدة ثمانية شهور اضطر بعدها للانسحاب(٣) . وفي سنة ٩٤٩ م ، أرسل قسطنطين السابع حملة لاسترداد كريت منيت بالهزيمة(٤) . ولم يقدر للبيزنطيين أن يستردوا كريت إلا في سنة ٩٦١ م عندما حشد الإمبراطور رومانوس الثاني (٩٥٩ - ٩٦٣ م) قوة بحرية هائلة لم يشهد لها البحر المتوسط مثيلاً تتألف

(١) Genesis, Regna, p. 48; ; Theophanes Continuatus, Historia, pp 299-300; Cedrenus, Historiarum, pp 226-227
(٢) Theophanes Continuatus, Historia, pp 368; Cedrenus, Historiarum, pp 261-262; Monachus, Imperatorum, pp 862- 863;
وللمزيد عن هذا الهجوم ، انظر : إسمنت غنيم ، كريت ، ص ص ١٨٥ - ٢٠٠ .
(٣) Bury, E. R. E. p. 231 ; Bayens, Byzantine Empire, Home University Library, London, 1935, p. 143.
وانظر أيضاً : على محمد فهمي ، البحرية الإسلامية ، ص ٣١٦ .
(٤) Constantine Porphyrogenetus, De Ceremoniis Aulae Byzantinae, ed. Reiske, J.J. and Bekker, C. S. H. B. , Bonn, 1829 - 1830, pp 664-678; Cedrenus, Historiarum, p 336.
وانظر أيضاً : إسمنت غنيم ، كريت ، ص ص ٢٢٤ - ٢٢٧ .

من ألفى سفينة حربية وألف وثلاثمائة وستين سفينة للمؤن والإمدادات ،
وجعل على قيادتها قائده الشهير نقفور فوقاس (١) .

هذا عن كريت ، فماذا عن صقلية ؟ لقد كانت صقلية - كما سبق
أن ذكرنا - جبهة ثانية للقتال فتحت أمام الإمبراطورية البيزنطية بالتزامن
مع استيلاء الأندلسيين على كريت فى سنة ٨٢٧ م . فكان من الأهداف
التكتيكية للهجوم البيزنطي على دمياط تخفيف الضغط على القوات
البيزنطية فى صقلية (٢) . فالى أى مدى نجح البيزنطيون فى تحقيق هذا
الهدف ؟ إن الثابت من تتبع تاريخ صقلية منذ سنة ٨٤١ م ، أى قبل
الهجوم البيزنطي على دمياط بأكثر من عشر سنوات تقريباً ، أن مد
الفتوحات الإسلامية فى الجزيرة قد تصاعد فى هذه الفترة ، كما أوضحنا
عند الحديث عن المقدمات التاريخية للهجوم البيزنطي على دمياط فى عام
٨٥٣ م (٣) . فهل نجح البيزنطيون بهجومهم على دمياط فى درء هذا
الخطر ، والحيلولة دون تقدم المسلمين فى صقلية وتخفيف الضغوط على
القوات البيزنطية ؟

إن الواقع التاريخي يقول غير ذلك . إذ توالى الفتوحات الإسلامية
فى صقلية بعد الهجوم البيزنطي على دمياط بنفس وتيرتها قبل هذا الهجوم
، فنرى العباس بن الفضل يستولى على بثيرة Butera فى ٨٥٣ م ، ثم
على خمسة حصون فى ٨٥٦ م ، ثم نراه يغزو تورمينا Taormina
وسيراكوزا Syracuse فى ٨٥٧ وتسلم له مدينة كيفالو Cefalu ، وأخيراً
استسلمت له مدينة إنا Enna (قصريانة) فى ٢٦ يناير ٨٥٩ م ،
فاستولى على قلعتها التى ظلت تقاوم لثلاثين سنة ، فأعدم حاميتها وابتنى
فيها مسجداً ، واستمرت الانتصارات الإسلامية على البيزنطيين فى

Symeon Magister, Chronographia, pp 758 -760 ; Theophanes (١)
Continuatus, Historia, pp 340-341; Zonaras, Epitome, Tome III, pp
490 - 492

(٢) انظر ما سبق ، ص ١٨ من هذا البحث

(٣) انظر ما سبق ، ص ١٥ ، ١٦ من هذا البحث .

صقلية وتوجت فى أغسطس ٩٠٢ م ، بسقوط تورمينا آخر معقل
بيزنطى فى الجزيرة فى يد المسلمين (١)

وإذا كان البيزنطيون قد حققوا بعض الانتصارات على مسلمي
كريت فى أول عهد بازيل الأول الذى بذل جهوداً كبيرة لإعادة النفوذ
البيزنطى فى البحر المتوسط فإن جهوده راحت أدرج الرياح فيما يتعلق
بصقلية . فكانت الهزائم البيزنطية المتتالية أمام المسلمين سواء فى كريت
أو صقلية دليلاً على إخفاق الإمبراطورية فى تحقيق هدفها الاستراتيجى
الأكبر فى ذلك الوقت وهو التخلص من التهديد الإسلامى للوجود البيزنطى
فى البحر المتوسط فاستمر هذا التهديد قائماً حتى سنة ٩٦١ م بالنسبة
لكريت ، وسنة ٩٠٢ م بالنسبة لصقلية (٢) .

وأما النتيجة الثانية للهجوم ، وهى تنبيه المسلمين إلى ضرورة بناء
أسطول قوى قادر على مواجهة الهجمات المفاجئة ، فتنطوى على مفارقة
تاريخية تستحق التوقف عندها وإمعان النظر فيها . فقد كان النجاح
التكتيكى الذى حققه البيزنطيون بتدمير دمياط وأشتوم تيسر باعتبارهما
مركز إمداد المسلمين فى كريت بالأسلحة والعتاد ، والاستيلاء على
الأسلحة الموجودة فى المخازن ، وإحراق خزانة القلوع ، إشارة تنبيه كان
لها أبعاد الأثر فى قيام سلطات الخلافة فى بغداد والسلطات الإقليمية فى
الفسطاط باتخاذ إجراءات دفاعية جادة . فقد زيد فى حجم الأسطول زيادة
ملموسة ، وشيدت تحصينات كثيرة فى المدن الساحلية ، وتم تحسين نظام
المراقبة وتجنيد بحارة وجند جدد وتقوية الحاميات الاستراتيجية (٣) .

والمفارقة هنا هى أن النجاح الساحق الذى حققه البيزنطيون فى
حملتهم على دمياط انقلب عليهم ليصبح حافزاً لدى المصريين لإنشاء

(١) إبراهيم طرخان ، المسلمون فى أوروبا ، ص ص ٩٤ - ٩٦ .

(٢) Jenkins, R., Byzantium, The Imperial Century 601-1071, AD, London, 1966, pp 190 191 .

(٣) Kubiak, Damietta, p 45 .

أسطول جديد كان نواة للقوة البحرية الهائلة زمن الفاطميين على حد تعبير فازيليف⁽¹⁾ وكأنما أراد البيزنطيون - على المستوى الاستراتيجي القضاء على مصدر القوة التي تهدد سواحلهم فإذا هم يخلقون لأنفسهم تهديداً أشد أثراً وأكثر قوة تمثل في الأسطول المصري الضخم في العصر الفاطمي .

والواقع أن البيزنطيين قد تنبهوا فعلاً إلى صحوة البحرية المصرية في أعقاب هجومهم على دمياط في ٨٥٣ م ، وحاولوا عرقلة جهود المصريين لبناء أسطولهم وإصلاحه . فقد عاودوا الإغارة على دمياط سنة ٨٥٤ م ، وعاثوا فيها فساداً . وانفرد المقریزی بذكر هذه الغارة، وجاء في روايته أن البيزنطيين طرّقوا دمياط في نحو مائتي مركب فقاموا يعيشون في السواحل شهراً وهم يقتلون ويأسرون وكانت للمسلمين معهم معارك^(٢). وذهب المؤرخ المحدث جنكنز إلى أن قائد هذه الحملة ربما كان ثيوكتيستوس^(٣)، ويؤيد ذلك ما أورده المؤرخ موريس كنار الذي يذهب إلى أن الهدف من الغارة كان إعاقة بناء دور صناعة السفن ، وإنشاء الأسطول المصري أو عمليات الإصلاح التي أمر بها المتوكل^(٤). ولكن ذلك لم يكن له أثر كما يتضح من تسلسل الأحداث فيما بعد ونمو القوة البحرية المصرية في عصر الطولونيين والفاطميين .

ونعود إلى اهتمام المصريين بتنمية قوتهم البحرية وبناء أسطولهم القوى ، فنجد المقریزی يصور لنا هذا الاهتمام احسن تصوير فيقول : " فوقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول وصار من أهم ما يعمل بمصر وأنشئت الشواني برسم الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر ، وانتدب الأمراء له الرماة فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة وانتخب له القواد العارفون

^(١) انظر ما سبق ، ص ٩ من هذا البحث .

^(٢) المقریزی ، المواعظ ، ج ١ ص ٤٠١ .

^(٣) Jenkins, Byzantium, , p159.

^(٤) . (Canar, The Muslim World, p 713 .

لمحاربة العدو ، وكان لا ينزل في رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمر الحرب ، هذا ، وللناس إذ ذاك رغبة في جهاد أعداء الله وإقامة دينه لا جرم إنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة ولكل أحد من الناس رغبة في أن يعد من جملتهم فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه " (١) يفهم من شهادة المقریزی جملة أمور منها أن الخلافة العباسية قد تنبعت إلى ضرورة العناية بالقوة البحرية في مصر وأن هذه العناية قد امتدت لتشمل بناء أسطول قوى قادر على مواجهة مثل هذه الهجمات المفاجئة وتزويد هذا الأسطول بالرجال وتدريبهم وإعدادهم لمحاربة الأعداء ، وأن العمل في خدمة الأسطول كان شرفاً يسعى إليه الناس بشتى السبل . وربما كانت رواية المقریزی عن السعي إلى الخدمة في الأسطول صادقة فيما يتعلق بالمسلمين ، أما الأقباط ، فقد أورد ساويرس بن المقفع رواية عن موقفهم من العمل في الأسطول تناقض ما ذكره المقریزی عن التحمس لهذا العمل . ففي سيرة حياة البطريك قزما نجد رواية للأحداث التي وقعت " في جميع المدن الساحلية لأن اليونانيين جاءوا إلى دمياط ونهبوها " فنقتطف منها الجزء التالي عن تكليف المسيحيين بالعمل على السفن : " وأرسل المسيحيون إلى السفن ولم يعط لهم درهم واحد مقابل الرحلة ... وكانوا يجبرون على مراعاة هذا القانون الظالم وقد فعل الحاكم ذلك بسبب كراهيته الشديدة للمسيحيين فوضع قائمة بالبلد كلها وأجبر عدداً من الرجال على الإبحار مع الأسطول . وبالإضافة إلى ذلك فإنه لم يكن يدفع لهم ثمن الأسلحة بل كان يقوم بالنتفيش عليهم ويتحرش بكل من يجده بلا سلاح منهم ويفرض عليه غرامة جائرة ويجبره على شراء تجهيزات يقاتل بها بل كانوا يأخذون الضعفاء الذين لم يكونوا يصلحون للسفر أو يعرفون شيئاً عن مهنة الملاحة أو فن القتال " (٢).

(١) المقریزی ، المواعظ ، ج ١ ، ص ٤٠١ .

(٢) ابن المقفع ، بطارقة الإسكندرية ، ج ٢ ، ص ٨ .

وربما كانت هذه الرواية تبالغ في وصف الاضطهاد الذي تعرض له المسيحيون على يد الحاكم عنبسة بن إسحاق الذي كان من أكثر الحكام ورعاً وعدلاً^(١) ، إلا أنها تقدم لنا شهادة عن موقف أقباط مصر من الخدمة في الأسطول . ومما يؤيد رواية ساويرس بن المقفع عن إجبار الرجال على العمل في الأسطول ذلك الخطاب المكتوب على برديّة محفوظة في متحف بنلسفانيا والذي اكتشفه ديلافيدا والموجه إلى شخص يدعى (أبو جعفر) صححه الناشر جروهمان إلى (أبو حفص) . وقد ورد في هذا الخطاب : " أى أبا حفص ، لو انك رأيت الارتباك والعسر اللذين يعيش فيهما الناس الآن ! إنهم يخطفون البحارة وغير البحارة . ويخطفون أى شخص يجدونه . وكل يوم يهجمون بعنف من كل مكان . أننى أسأل الله أن يخفف عنا برحمته .. " (٢) .

ومن هنا ، فإنه يمكن القول بأن قيمة هاتين الشهادتين من المقريزى ، ثم من سيرة حياة البطريرك قزما وبرديّة متحف بنلسفانيا تكمن فى أنهما تصدران عن وسطين شديدي الاختلاف ، هما الوسط المسيحي والوسط الإسلامي^(٣) وهما معاً يدلان على حرص الدولة على توفير الأفراد اللازمين للخدمة فى الأسطول باعتبار ذلك جزءاً من خطة شاملة للنهوض بالقوات البحرية المصرية فى أعقاب الهجوم البيزنطي على دمياط حتى وإن كان ذلك بما يشبه نظام التجنيد الإجباري للخدمة فى الأسطول .

الخاتمة

هكذا كانت أحداث الهجوم البيزنطي على دمياط سنة ٨٥٣ م / ٢٣٨ هـ . وهو الهجوم الذى باغتت فيه السفن البيزنطية المدينة فى صباح يوم عرفة وهى عارية من دفاعاتها ، وقد حاولنا من خلال عرضنا

(١) انظر : Kubiak, Damietta, p 57.

(٢) Kubiak, Damietta, p 55.

(٣) Kubiak, Damietta, p 58.

لوقائع هذا الهجوم البيزنطي على دمياط والنتائج التي تمخض عنها طرح رؤية جديدة للحدث تقوم على دعائم ثلاث هي:

١- وضع الحدث في إطاره الصحيح باعتباره حلقة من حلقات الصراع البحري البيزنطي الإسلامي في منتصف القرن التاسع الميلادي / القرن الثالث الهجري ، وتم ذلك من خلال :-

أ- استعراض المقدمات التاريخية للهجوم والتي تمثلت أساساً في الأوضاع العامة للقوات البحرية المصرية في الفترة الواقعة بين هزيمة الأسطول المصري أمام قبرص سنة ٧٤٦ م ، والهجوم البيزنطي على دمياط في ٨٥٣ م ؛ واستيلاء المسلمين على كريت ومحاولات البيزنطيين لاستردادها بين سنتي ٨٢٧ ، ٨٥٣ م ؛ وفتح مسلمي شمال أفريقيا لجزيرة صقلية في ٨٢٧ م .

ب - تحديد الهدف الاستراتيجي للهجوم وهو القضاء على التهديد الإسلامي للنفوذ البيزنطي في البحر المتوسط ، وأيضاً تحديد الأهداف التكتيكية اللازمة لتحقيق هذا الهدف والتي تمثلت في تدمير دمياط باعتبارها مركزاً لإمداد مسلمي كريت بالأسلحة والسفن والعتاد ؛ والتخفيف من حدة ضغط القوات الإسلامية على القوات البيزنطية في صقلية ؛ وانتقام القائد البيزنطي ثيوكتيستوس لهزيمته أمام المسلمين عندما حاول استرداد كريت منهم في ٨٤٣ م ؛ والرد على إغارات على بن يحيى الأرمني على الأراضي البيزنطية بالشام في السنتين السابقتين على الهجوم على دمياط أي في عامي ٨٥١ ، ٨٥٢ م .

ج - عرض وقائع الهجوم من خلال استعراض مقارن لروايات المؤرخين العرب حيث التزمت المصادر البيزنطية الصمت التام إزاء هذا الهجوم لأسباب سياسية واضحة تتعلق بالعداء بين الأسرة المقدونية و الأسرة العمورية التي تحققت هذا النصر للبيزنطيين في عهدها .

د- استخلاص النتائج التي تمخض عنها الهجوم . وتمثلت هذه النتائج فى نجاح الهجوم تكتيكياً حيث حقق البيزنطيون معظم أهدافهم التكتيكية (كالاستيلاء على الأسلحة المعدة لكريت ، وتدمير خزانة القلوع ، وإرهاب المدينة ، والانتقام لهزيمة ثيوكتيستوس فى كريت ، والربط على إغارات على بن يحيى الأرمني فى الشام) وإخفاقه استراتيجياً حيث لم تقض هذه الغارة رغم أنها على تهديد مسلمي كريت للإمبراطورية ولم توقف زحف مسلمي شمال أفريقيا على صقلية حتى تم الاستيلاء عليها .

كما تم عرض أهم نتائج هذا الهجوم والتي تمثلت فى إهتمام الخلافة العباسية فى بغداد ، والحكومة الإقليمية فى مصر بتحصين الثغور البحرية ، ودعم الأسطول بالسفن الجديدة ، وتزويده بالرجال المدربين . وكان من أثر هذا الاهتمام الظاهر ببناء السفن وتطوير الأسطول أن ظن بعض المؤرخين خطأ أنه لم تكن هناك بحرية مصرية بالمرّة قبل الهجوم البيزنطي على دمياط فى ٨٥٣ م ، وهو رأى فندناه بالأدلة التاريخية القاطعة .

٢- إبراز أهمية الدور الإقليمي والدولي لمصر فيما يتعلق بهذا الهجوم مع إلقاء الضوء على الجوانب الإيجابية فى الشخصية المصرية كما تجلت فى مواجهته . فقد كانت الصلة القوية بين مصر وكريت ، هى السبب المباشر وراء الهجوم البيزنطي على دمياط فكان انضواء مسلمي كريت - أو الأندلسيين - تحت لواء الدولة العباسية ودخولهم بالتالي فى التبعية الإدارية لمصر يعنى من الناحية الاستراتيجية أن كريت أصبحت بمثابة قاعدة بحرية متقدمة للدولة العباسية فى البحر المتوسط تنطلق منها هجمات المسلمين لتهدد السواحل والجزر البيزنطية . ولذا ، فقد كان من الطبيعي أن تنشأ علاقات وثيقة بين البلدين ، خاصة وأن المسلمين الذين استولوا على الجزيرة قد أقاموا لفترة فى مصر تعرفوا فيها على البلاد وأهلها وتعاملوا معهم اقتصادياً ، بل واستعانوا بهم فى تزويد سفنهم باحتياجاتها وربما بالرجال أيضاً عندما كانوا يقومون بالإغارة على الممتلكات

البيزنطية ثم يعودون إلى مصر . وقد تطورت هذه العلاقات بعد استقرار الأندلسيين بالجزيرة ، وأصبحت مصر بمثابة مركز الإمداد الأول لعملياتهم ضد الدولة البيزنطية . أى أن مصر بكل ما تمثله من ثقل فى ميزان العلاقات الدولية فى البحر المتوسط آنذاك - أصبحت فى نظر الدولة البيزنطية عمقاً استراتيجياً لكريت التى تنطلق منها الهجمات ضدها .

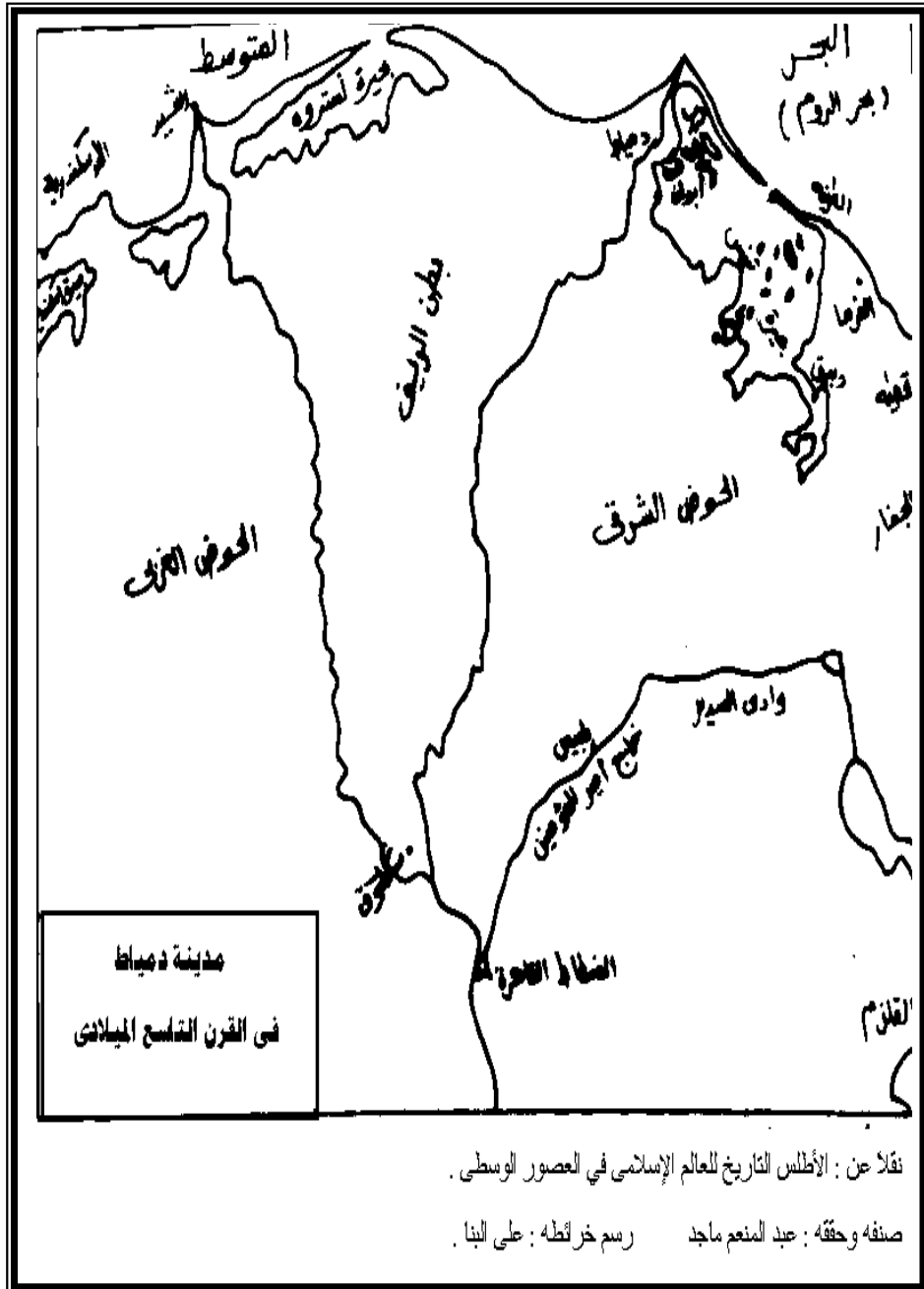
وهكذا ، وإزاء عجز البيزنطيين عن كف خطر مسلمي كريت ، لم يكن أمامهم إلا توجيه الضربة إلى العمق الاستراتيجي لهذه الجزيرة . ولكن توجيه هذه الضربة إلى مصر لم يقابل بالسكوت ، ففى الوقت الذى خلت فيه المدينة من حاميتها ، أدرك الرجال حتمية المقاومة والذود عن حياض المدينة ، وعرفوا أنهم فى حاجة إلى من ينظم المقاومة ويقودها ، فأخرجوا ابن الأكتشف من سجنه ، فكان عند حسن الظن به وأبلى - ومعه طائفة من الناس - بلاء حسناً . هذا على المستوى الشعبى ، أما على المستوى الرسمي ، ففور وصول النبأ إلى والى البلاد ، عنبسة بن إسحاق الضبى ، نودى بالنفير العام وجاء إسحاق على رأس جيشه ومعه جند البلاد قاطبة ، ولكن بعد المسافة بين الفسطاط ودمياط أتاح للبيزنطيين الوقت الكافي للخروج من المدينة .

أما عن وقائع الهجوم على دمياط والتحليل النقدي لرواية الهجوم عند المؤرخين العرب فقد اعتمدنا فى ذلك على رواية الطبري باعتبارها المصدر الرئيسي لمعلوماتنا عن الهجوم . لأنها الرواية الكاملة الوحيدة تقريباً لوقائع الهجوم كما يتضح من مقارنتها برواية اليعقوبي ، رغم أن هذا الأخير كان أقرب إلى الهجوم زمنياً من الطبري ، وروايات المؤرخين اللاحقين عليه بدءاً من الكندي فى القرن الرابع الهجري ، وانتهاءً بابن إياس فى القرن العاشر .

أما عن المقاومة الشعبية والرسمية فقد أثبت البحث اختلاف روايات المؤرخين العرب لدور المقاومة الشعبية والرسمية للهجوم على

دمياط ، وتراوحت هذه الراويات ما بين إبراز دور ابن الأکشف ، الذى أخرجہ أعوانه من السجن ليتزعم حركة المقاومة ، وأثر هذه المقاومة فى خروج الروم من دمياط ، وذكر إعلان النفير العام وخروج الوالى عنبسة بن إسحاق إلى دمياط على رأس جيشه وعدم إدراكه للروم ، وبالتالي عدم وقوع أى قتال بين الجيوش المصرية وقوة الغزو البيزنطية .

وأخيراً كانت هذه صورة لحلقة من حلقات الصراع البيزنطي الإسلامي وصل فيها التنافس الشديد إلى أبعد مدى ، وفى أكثر من مجال وميدان ، وأصبح الطابع العام هو أن كل قوة كانت ترقب الأخرى وتهدها فى عمقها الاستراتيجي ولا تغفل النظر عنها حتى لا تؤخذ على غفلة منها



نقلا عن : الأطلس التاريخ للعالم الإسلامي في العصور الوسطى .

صنفته وحققه : عبد المنعم ماجد رسم خرائطه : علي البنا .

بيان بالمختصرات ومصادر البحث ومراجعته

أولاً :- بيان بالمختصرات :

B.	: Byzantion.
B. Z	: Byzantinische Zeitschrift.
C. M. H.	: Cambridge Medivil History.
C. S. H. B.	: Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae.
D. A. I	: De Adminlstrando Imperio
D. C.	: De Cerimonus.
E. H. R.	: English Historical Review.
E. R. E.	: A History of the Eastern Roman Empire
J. H. S.	: Journal of Hellenic Studies.
J. M. S.	: A Journal of Mediaval Studies .
P. G. M.	: Patrologia Graeca Ed Migne.
P. L. M.	: Patrologia Latina, Ed Migne.
P. O.	: Patrologia Orientale.
R. H.	Revue d' Histerique.
R. E. B.	Revue d' Etude Byzantine.

ثانياً :- المصادر العربية :

- ابن الأثير ، الكامل :
- ابن الأثير : (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) : أبو الحسن علي بن احمد بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزرى : الكامل في التاريخ ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ — ١٩٨٧م ، (وطبعة صادر ، بيروت ، ١٩٦٥) .
- ابن المقفع ، بطاركة الإسكندرية :

• ابن المقفع : ساويرس (غير معروف تاريخ الوفاة) : تاريخ بطاركة الإسكندرية , إعداد الأنبا صموئيل , أسقف شبين القناطر وتوابعها , النعام للطباعة والتوريدات , ١٩٩٩ .

• ابن إياس ، بدائع الزهور :

ابن إياس : (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) : أبو البركات محمد بن أحمد الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور , تحقيق محمد مصطفى , الجزء الأول , القسم الأول , الهيئة المصرية العامة للكتاب , القاهرة , ١٤٠٢ - ١٩٨٢ .

• ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة :

ابن تغري بردي : (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) : جمال الدين أبو المحاسن يوسف : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة , تحقيق إبراهيم علي طرخان , المؤسسة المصرية العامة للكتاب , القاهرة , ١٩٦٣ , الجزء الثاني .

• ابن خلدون ، العبر :

ابن خلدون : (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) : عبد الرحمن بن محمد : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر , دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني , القاهرة / بيروت , ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩ .

• ابن عبد الحكم ، فتوح مصر :

ابن عبد الحكم : (ت ٢١٤هـ / ٨٢٩م) : عبد الرحمن : فتوح مصر وأخبارها , القاهرة , ١٩٧٧ .

• ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب :

ابن عذاري : (ت أواخر القرن السابع الهجري / أواخر القرن الثالث عشر الميلادي) : أبو محمد عبد الله بن محمد المراكشي : البيان المغرب

في أخبار الأندلس والمغرب ، نشر وتحقيق س. كولان ، وليفي بروفنسال ، الجزء الأول ، ليدن ، ١٩٤٩ ، الجزء الثاني ، ١٩٥١ .

• ابن مماتي ، قوانين الدواوين :

ابن مماتي : (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) : السعد بن المهذب : قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ، ١٩٤٣ .

• البلاذري ، فتوح البلدان :

البلاذري : (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) : أحمد بن يحيى بن جابر : فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، طبعة بيروت ، مؤسسة المعارف ، ١٩٨٧ م .

• الذهبي ، دول الإسلام :

الذهبي : (ت ٧٤٦ أو ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) : الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين الذهبي : دول الإسلام ، عني بطبعه ونشره عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، إدارة إحياء التراث الإسلامي ، دولة قطر ، ١٩٨٨ م .

• السيوطي ، تاريخ الخلفاء :

السيوطي : (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة ، القاهرة ، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .

• الطبري ، تاريخ الرسل :

الطبري : (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) : أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

• الكندي ، ولاة مصر :

الكندي : (ت ٣٥٠هـ / ٩٦١ م) : أبو عمر محمد بن يوسف المصري :
كتاب ولاة مصر ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ١٩٨٧ .

• المقري ، نفح الطيب :

المقري : (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣٣ م) : أحمد بن محمد التلمساني :
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ١٠ أجزاء ، تحقيق وتعليق محمد
محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ، القاهرة (مطبعة السعادة) ،
١٩٤٩م - ١٣٦٧هـ .

• المقرئزي ، المواعظ :

المقرئزي : (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) : نقي الدين أحمد بن علي
: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق ،
١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م .

• المقرئزي ، الحنفا :

المقرئزي : اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق الدكتور
جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .

• المقرئزي ، السلوك :

السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ،
١٩٥٧ .

• النعمان ، المجالس :

النعمان : (ت ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م) : القاضي أبو حنيفة بن محمد
المغربي : المجالس والمسائرات ، تحقيق الحبيب الفقيه ، دار المنتظر ،
بيروت ، ١٩٦٦ .

• اليافعي ، مرآة الجنان :

اليافعي : (ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٧ م) : أبو محمد عبد الله بن اسعد بن علي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان , وضع حواشيه خليل المنصور , منشورات محمد علي بيضون , دار الكتب العلمية , بيروت , لبنان , ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م

• **ياقوت الحموي ، معجم البلدان :**

ياقوت الحموي : (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي : معجم البلدان , طبعة بيروت , ١٩٥٥ .

• **اليقوبي ، تاريخ اليقوبي :**

اليقوبي : (ت ٢٩٢ هـ / ٨٩٧ م) : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح الاخباري : تاريخ اليقوبي , دار صادر , بيروت , ١٩٦٠ .

ثالثاً :- المراجع العربية والمعرية :

• **ابراهيم العدوي ، الأساطيل العربية :**

إبراهيم العدوي (دكتور) : الأساطيل العربية في البحر المتوسط , القاهرة , ١٩٥٧ .

• **ابراهيم العدوي ، إقريطش :**

إبراهيم العدوي (دكتور) : إقريطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع الميلادي , المجلة التاريخية المصرية , المجلد الثالث , العدد الثاني , أكتوبر ١٩٥٠ .

• **ابراهيم العدوي ، الامبراطورية البيزنطية :**

إبراهيم العدوي (دكتور) : الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية , مكتبة نهضة مصر ، الفجالة ، القاهرة ، ١٩٥١ .

- إبراهيم علي طرخان ، المسلمون في أوروبا :
إبراهيم علي طرخان (دكتور) : المسلمون في أوروبا في العصور
الوسطى ، مشروع الألف كتاب ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ،
١٩٦٦ .
- أرشيبالد لويس ، القوي البحرية :
أرشيبالد لويس : القوي البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط
٥٠٠ - ١١٠٠ م ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- إسمت غنيم ، كريت :
إسمت غنيم (دكتورة) : الأمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية ،
دار المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٣ .
- البدر اوي زهران ، علم اللغة :
البدر اوي زهران (دكتور) : في علم اللغة التاريخي ، دراسة تطبيقية
علي عريبة العصور الوسطى ، دار المعارف ، ١٩٧٩ .
- جمال الدين الشيال ، تاريخ دمياط :
جمال الدين الشيال (دكتور) : مجمل تاريخ دمياط سياسيا واقتصاديا ،
مطبعة مدرسة دون بوسكو ، الإسكندرية ، ١٩٤٩ .
- درويش النخيلي ، السفن الاسلامية :
درويش النخيلي (دكتور) : السفن الاسلامية علي حروف المعجم في :
تاريخ البحرية المصرية ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٣ .
- سعاد ماهر ، البحرية :
سعاد ماهر (دكتورة) : البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ،
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ .
- السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية :

السيد الباز العريني (دكتور) : الدولة البيزنطية , دار النهضة العربية , ١٩٨٢ .

• السيد عبد العزيز ، سالم وأحمد مختار العبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية :

السيد عبد العزيز (دكتور) ، سالم وأحمد مختار العبادي (دكتور) : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٣ ، جزءان .

• السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب :

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) : دراسات في تاريخ العرب - العصر العباسي الأول، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية .

• صبحي الصالح ، علوم القرآن :

صبحي الصالح (دكتور) : مباحث في علوم القرآن ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٩٤ .

• صفاء حافظ ، الثغور المصرية :

صفاء حافظ أحمد عبد الفتاح (دكتورة) : الثغور المصرية من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة القاهرة ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩ م .

• علي محمد فهمي ، البحرية الإسلامية :

علي محمد فهمي (دكتور) : البحرية الإسلامية في شرق البحر المتوسط من القرن السابع إلي العاشر الميلادي ، في : تاريخ البحرية المصرية ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٣ .

• علية عبد السميع الجنزوري ، هجمات الروم :

علية عبد السميع الجنزوري (دكتورة) : هجمات الروم البحرية علي شواطئ مصر الاسلامية في العصور الوسطي , الهيئة المصرية العامة للكتاب , ١٩٩٩ .

• **فازيليف ، العرب والروم :**

فازيليف : العرب والروم , ترجمه إلى العربية محمد عبد الهادي شعيرة ، دار الفكر العربي .

• **فتحي عثمان ، الحدود :**

فتحي عثمان (دكتور) : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري , ٣ أجزاء, القاهرة , ١٩٦٧ .

• **محمد فاتح عقيل ، الموقع الجغرافي :**

محمد فاتح عقيل (دكتور) : أهمية الموقع الجغرافي لجمهورية مصر العربية , في: تاريخ البحرية المصرية , جامعة الإسكندرية , ١٩٧٣ .

• **محمد محمد مرسى الشيخ ، دولة الفرنجة :**

محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور) : دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي ، الإسكندرية ، ١٩٨١ م .

• **محمد محمود منصور ، بيزنطة ومسلمو إفريقية:**

محمد محمود منصور محمد (دكتور) : بيزنطة ومسلمو إفريقية في عهد الأستين الأيسورية والعمورية , رسالة ماجستير غير منشورة, كلية الآداب , جامعة الزقازيق , فرع بنها , ١٩٩٣

• **ناجي محمد عبد القادر نوار ، ميخائيل الثالث :**

ناجي محمد عبد القادر نوار (دكتور) : العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والخلافة العباسية في عهد الإمبراطور ميخائيل الثالث , رسالة ماجستير غير منشورة , كلية الآداب , جامعة الإسكندرية , ١٩٨٤ .

• نقولا يوسف ، دمياط منذ أقدم العصور :

نقولا يوسف : تاريخ دمياط منذ أقدم العصور ، الاتحاد القومي بدمياط.

• وديع فتحي عبد الله ، ثيوفيلوس :

• وديع فتحي عبد الله (دكتور) : العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية والخلافة العباسية في عهد الإمبراطور ثيوفيلوس ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، يناير ١٩٨٢ .

• وديع فتحي عبد الله ، بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي :

• وديع فتحي عبد الله (دكتور) : العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي (٧٤١ - ٨٢٠ م / ١٢٤ - ٢٠٥ هـ) ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٠ .

• وسام عبد العزيز فرج ، الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية وسام عبد العزيز فرج (دكتور) : العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتي منتصف القرن الثامن الميلادي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، ١٩٨١ .

رابعاً :- المصادر الأجنبية :

- **Cedrenus, Historiarum,**
Cedrenus, G. : Historiarum Compendium, ed. I. Bekker, 2 vols., in C. S. H. B., Bonn, 1839.
- **Constantine Porphyrogenetus, De Administrando,**
Constantine Porphyrogenetus, De Administrando Imperio, in .C. S. H. B., Bonne, 1840.
- **Constantine Porphyrogenetus, De Ceremoniis,**
Constantine Porphyrogenetus, De Ceremoiis Aulæ Byzantinae, ed. Reiske, J.J. and Bekker, in C. S. H. B. , Bonn, 1829 - 1830.
- **Constantine Porphyrogenetus, (Vita Basilu),**
Constantine Porphyrogenetus, (Vita Basilu), Historia De Vita Rebus Gestis Basilu , In

Theophanes Continuatus, Liber 5, P. G. M., Tome CIX, Paris 1863, Cols. 225-370.

- **Genesisius, J., Regna,**
Genesisius, J., Regna. Ed. Lachman, C., in C S. H. B., Bonn, 1834.
- **Georgius Hamartolus, Chronicon,**
Georgius Hamartolus Monachus, Chronicon, P.G.M., Tome CX, Paris, 1863, Cols. 41-1286 .
- **Leo Grammaticus, Chronographia,**
Leo Grammaticus, Chronographia, ed. Bekker, I, C. S. H. B., Bonn, 1842
- **Monachus, G., (Imperatorum),**
Monachus, G., (Imperatorum), Vita Recentiorum Imperatorum, in Theophanes Continuatus, C. S. H. B. , 1838, pp. 761 – 924.
- **Nicephorus, Breviarum,**
Nicephorus Patriarchae, Breviarum Historicum, Tome C, P.G.M., Paris, 1860, Cols. 875-994.
- **Symeon Magister, Chronographia,**
Symeon Magister (Logothete), Chronographia, in Theophanes Continuatus., ed. I. Bekker (Bonn, 1838) pp.601 – 760.
- **Theophanes, Chronographia,**
Theophanes, Chronographia, P.G.M. Tome CVIII, Paris, 1863, Cols. 9-1010.
- **Theophanes Continuatus, Historia,**
Theophanes Continuatus, Historia, ed. Bekker, I ,C. S. H. B., Bonn, 1838, pp 1 – 484.
- **Zonaras, Epitome,**
Zonaras, I., Epitome Historiarum, ed. M. Pindar, B. Buttner, Wobst, 5 vols, Bonn, 1841- 1897..

خامساً :- المراجع الأجنبية :

- **Ahrweiler, la Mer,**

Ahrweiler, Helen, *Byzance et la Mer, marine de guerre, la politique et les institutions maritimes de Byzance au VII au XV Siecles*, Paris, 1966.

- **Amari, Sicila,**
Amari, M., *Storia dei Muslmani de Sicila*, Vol. I, Siconda Edizione Modificata, Catania, 1933.
- **Anastos, Iconoclasm,**
Anastos, M.V., *Iconoclasm and Imperial Rule* , in *Cambridge Medieval History*, vol IV, part 1, second ed., Cambridge 1967.
- **Bayens, Byzantine Empire,**
Bayens, N.H. , *the Byzantine Empire*, Home University Library, London, 1935.
- **Brooks, the Relations,**
Brooks, E.W., *the Relations between the Empire and Egypt from the New Sources*, in *B.Z.*, vol.XVII, Bruxelles, 1913.
- **Brooks, the Struggle,**
Brooks, E.W., *the Struggle with the Saracens* , 717-867, in *C. M. H.*, vol IV, Cambridge , 1936.
- **Brooks, Crete,**
Brooks, E.W., *The Arab Occupation of Crete*, in: *English Historical Review*, XXVIII, 1913.
- **Bury, E. R. E ,**
Bury, J.B., *A History of the Eastern Roman Empire from the Fall of Irene to the Accession of Basil I, 802-867*, London, 1912.
- **Canard, the Muslim World,**
Canar, Marius, *Byzantium and the Muslim World to the Middle of the Eleventh Century*, in: *C.M.H.*, Vol.IV, Part I, Cambridge, 1967.
- **Diehl, Moyen-âge ,**
Diehl, Charles, *Histoire du Moyen-âge* , T.III, *Le Monde Oriental de 395 à 1081*, Paris, 1936.
- **Finlay, Hist of the Byz Empire,**

Finlay, George, History of the Byzantine Empire from DCCXVI to MLVII, London, 1906.

- **Gregoire, Etudes,**
Gregoire, H., Etudes sur le Neuvieme Siecle, in : Byzantion Revue, Tome VIII, Bruxelles, 1933.
- **Jenkins, The Imperiel,**
Jenkins, R., Byzantium, The Imperiel Century 601-1071, AD, London, 1966.
- **Kubiak, Damietta,**
Kubiak, W.B., the Byzantine Attack on Damietta in 853 and the Egyptian Navy in the 9th Century in : Byzantion, Vol. XI, Bruxelles, 1970.
- **Lot, Armées,**
Lot, F., L'Art Militaire et les Armées au Moyen Âge en Europe et dans le Proche Orient, Tome Premier, Paris, 1946, p 63.
- **Ostrogorsky, State,**
Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, Rutgers University Press, 1957.
- **Vasiliev, A. A. Hist of Byz Empire ,**
Vasiliev, A. A., History of the Byzantine Empire 324 – 1453, the University of Wisconsin Press, 1952.
- **Zenghelis,C., le Feu Gregois,**
Zenghelis,C., le Feu Gregois et les Armes a Feu des Byzantins, in Byzantium, Tome VIII, Bruxelles, 1932.
